عبد السلام العجيلي

مبدع نبضات القصة والرواية

تصميم الغلاف

عبد العزيز محمد

عبد اللطيف الأرناؤوط

عبد السلام العجيلي

مبدع نبضات القصة والرواية

١٩١٨ - ٢٠٠٦

دراسة

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة – دمشق ٢٠٢١

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّر (بالضرورةِ) عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها.

تأملات عبد السلام العجيلي
في الأدب والحياة

يعدّ الدكتور عبد السلام العجيلي أحد روّاد القصة والرواية في الأدب العربي الحديث. كما تعدّ اتجاهاته الأدبية تطلعاً واقعياً إلى ربط الأدب بحياة الأديب وواقعه الإنساني، فقد ترعرع في بيئة بدوية في مدينة «الرقة» السورية، وينتمي إلى عشيرة عربية «البو بدران»، نزحت من سهول الموصل إلى ضفتي الفرات في الجزيرة الشامية السورية، ومارس أفرادها رعاية المواشي والزراعة بعد استقرارها النسبيّ. وتابع «العجيلي» دراسته في الرقة وحلب ثم في جامعة دمشق فتخرج فيها طبيباً، وآثر الاستقرار في مدينة الرقة بين أهله وعشيرته، واتخذ الأدب هواية له دون أن يتخلى عن رسالته الإنسانية في ممارسة الطب وإنقاذ الأرواح، مؤثراً الحياة البسيطة والدخل المحدود، وكانت الفرص أمامه مهيأةً ليؤدي دوراً بارزاً في الحياة الأدبية والسياسية والاجتماعية في وطنه، فقد عرفه المجتمع العربي مناضلاً قومياً يتطوع مع الفدائيين الذين ذهبوا إلى فلسطين، وقاوموا المحتل الصهيوني بالسلاح، ونائباً عن الرقة، ووزيراً في أكثر من وزارة، لكنه آثر خدمة مجتمعه المحلّي منسجماً مع اقتناعه الخاص ورؤيته الحياتية طبيباً وأديباً.

وإذا كان الأدب تعبيراً عن الحياة، فإن العجيلي يعدّ أصدق ممثل لهذه الحقيقة، فهو بما يكتب لم يتجاوز تجاربه الخاصة ومحيطه الإنساني، يتنازعه

عالمان أسهما في تكوينه بعالم البادية، وما تحمل من قيم موروثة أصيلة نشأ عليها وآمن بها، وجهد في أدبه أن يبرز أثر هذا التراث الفني والأصيل الذي عاش عليه، وهو تراث يتحدر عبر آلاف السنين ويُسهم في تكوين الإنسان العربي الذي مازال يحتفظ سماته وإن كان هذا الحفاظ يخضع لسنن التطور، فهو لدى البداة أظهر منه لدى الفلاحين، وأظهر منه لدى أبناء المدن. لتبدّل أسلوب الحياة، وسهولة تطور الروابط الاجتماعية عند العشائر، لتغيّر طريقة الاقتصاد وبروز الروح الفردية الاستقلالية. وكان «العجيلي» في تقويمه لهذا الموروث يترجّح بين الإعجاب ببعض قيمه الموروثة من وفاء وكرم ونجدة وحمية واحترام للأعراف، ونقد لبعض ما علق به من عادات قديمة كالثأر والتسلط، وغسل العار الناجم عن زلة المرأة ولو على الشبهة، والتعلق بالخرافات والسحر والغيبيات، وتعزّز حفاظ العجيلي على التراث عبر تكوينه الثقافي، فقد كان قارئاً نهماً للتراث الأدبي والديني، يقول: **[قرأت السيرة النبوية، وسير الصحابة، وسيرة عنترة، وألف ليلة وليلة والعقد الفريد وبعض كتب الجاحظ بين التاسعة والرابعة عشرة. قرأت هذه الأعمال في الطبعات القديمة التي يسمونها الكتب الصفراء، أما مجلدات الأغاني فقد تأخرت قراءتي لها إلى السابعة عشرة من عمري، وقد فتحت لي الكتب التي تعلقت بها الآفاق الواسعة التي لم تكن تفتحها الحياة في البلدة الصغيرة «الرقة» للطفل الذي كنتُ «أنا»، فحاولت أن أزجّ نفسي في حياة تلك الآفاق، وبدأت محاولاتي في الكتابة وكنت في الثانية عشرة من عمري]**.

ولاشك أن كتب التراث بما تتضمن من قيم قد عزّزت انتماءه للماضي التراثي، فكانت قراءاته تثير لديه الإحساس باستطاعته السير على منوالها

وتقليدها والشعور [بأن حوله أشياء ذات قيمة لا يعرفها الناس. وعليَّ أنا أن أتولَّى نقلها إليهم.].

كثيراً ما ينوّه العجيلي بانتمائه إلى عالمه البدوي التراثي، ويردّ دوافعه إلى الكتابة بالدرجة الأولى إلى [حوافز ذاتية تنتسب إلى محاولة التعبير عن النفس]، بعدما تجاوز مرحلة النسج على أسلوب ما يقرأ، وإلى عالمه البدوي الأثير، وتعود أول قصة قصيرة كتبها إلى مجلة «الرسالة» المصرية بعنوان (نومان) وفيها يتحدث عن بدويّ قاطع طريق، يتخلى عن لصوصيته بعد أن تستثار كرامته ونخوته بكلام مؤثر. وإلى هذا العالم التراثي تنتسب أول مسرحية كتبها عن «المعري»، إلى مجلة «الحديث» الحلبية ونشرها باسم مستعار، ونال عليها الجائزة التي خُصصت للفائز الأول، وإلى هذا العالم التراثي البدوي تنتسب أعماله القصصية والروائية مثل: (الخيل والنساء ـ بنت الساحرة ـ المغمورون ـ عيادة في الريف) وسواها.

إن تأملات «العجيلي» في مجتمعه البدوي الريفي تتقاطع مع عالمه الآخر الذي يمثّل إنساناً مثقفاً وطبيباً مختصاً، ينظر إلى المجتمع نظرة الطبيب المشخّص للدواء، فلم تكن نظرته إلى مجتمعه الأم نظرة رومانسية بل نظرة الطبيب الذي يشرح ويحلّل، ويحدّد مكان الداء، وإن لم يتعارض ذلك وإعجابه بعالم البادية وقيمه، وأكسبته مخالطة طبقات الناس في عيادته، وفي مطحنة أبيه التي عمل فيها يافعاً معارف واسعة بأناس بيئته. يقول: **[وعملي في المطحنة أتاح لي معرفة عميقة بالناس حضراً ونصف حضر وبداة وأصبحت أميّز بين العشائر، وأستمع إلى قصص النزاعات بينها، صور ومعالم غُرست في وعيي، وأصبحت مرتكزاً لمعرفتي وسلوكي ولإنتاجي في**

العلم والأدب والحياة. وتتضح بعض آثارها في التنوع الذي تتصف به كتاباتي في القصة والرواية والمقالة والمحاضرة، بل في حديثي مع الناس وممارستي الطب في عيادتي]. لكن العجيلي لم يكن إنساناً مغلقاً على بيئته الضيقة وهو المثقف ورجل السياسة والمناضل المغامر، فثمة عالم آخر ينتمي إليه هو عالمه القومي والإنساني. ففي أعماله القصصية والروائية يتجاوز الكتابة عن مجتمعه المحلي الضيق إلى التعبير عن مشاعر إنسان عربي عايش نكبة فلسطين، واكتوى بنار السياسة، ولم تكن عزلته في الرقة لوناً من السجن الذي اختاره لنفسه كالمعرّي، كانت ثمرة خيبة أمل لا يظهرها في حياته بقدر ما تظهر في أعماله الأدبية، وعدّ نفسه كاتباً ملتزماً قضايا أمته، لكنه التزام فردي مبني على الاستقلال الفكري، واحترام الحرية الذاتية، وقد أدانه أصحاب الشعارات العقائدية بأنه كاتب رجعي يدافع عن قيم الإقطاع والأوضاع الرجعية لأنه ندّد بالظلم الإنساني الواقع على فلاحي المنطقة التي أقيم فيها «سدّ الفرات» الذي غمر بيوتهم وأرضهم. من منطلق أن الخير العام لا يجوز أن يسوّغ الظلم، ولو كان واقعاً على فرد أو فئة من الأفراد، والواقع أن هؤلاء النقاد من الذين علّبتهم الشعارات لم يطب لهم أن يكون للعجيلي رؤيته الخاصة في معنى الالتزام، رؤية تنبع من إيمانه بالحرية الذاتية وإيمانه بحرية الإنسان.

وأكثر ما كان يؤلمه سوء فهم الناس لحريته التي قادته إلى الصدق مع نفسه والانسجام مع ما يقتنع به ولو أغضب الآخرين، وجاءته الدينونة بسبب هذه الحرية من المحافظين والتقدميين. رأت الفئة الأولى في واقعيته الأدبية ودعوته إلى تحرير المجتمع خطراً عليها، فاتهمته بالتطرف نحو اليسار. والفئة الثانية لم يرضها استقلاله وبُعده من شعارات معيّنة فاتهمته بالرجعية... يقول:

[على الرغم من نتاجي الأدبي، دَعْكَ من أعمالي الشخصية فقد حمل من العناصر القومية والتقدمية، البنّاءة ماهو أقوى بكثير مما حواه نتاج كثير من كتّاب الجيل الحاضر، فإن أحكام بعض من يتولون النقد أو التقويم تحاول التشكيك في مواقف مبدع هذا النتاج، والسبب أنه لا يرفع عقيرته بشعار معين، أو أنه يتخلف عن الانتساب لتنظيم معين، وأحياناً لتباعده عمّا هو غير لائق بقيمة الفكر وغير متناسب مع حراجة المواقف القومية].

وقد نفذوا إلى دينونته من خلال قبوله الاشتراك في الوزارة التي شكلها دعاة الانفصال عن الوحدة مع أنها مثلت في وجدانه بصورة عذراء رائعة الجمال في روايته «باسمة بين الدموع» فنازك هي الوحدة التي ذهب ليبحث عنها بطل الرواية في القاهرة، وفضح الطبقة الراقية صاحبة المنفعة من الانفصال، والتي أفسدت جوهر الوحدة بين سورية ومصر بسعيها وراء منافعها الخاصة، وأصبحت آمال الجماهير المتطلعة إلى حلمها الكبير الذي تجسّد بعلاقة الحب الخالدة بين مصري ودمشقية أحبته لكنها قطعت رباطها به حين اكتشفت أنه [هيكل محنط من الهياكل الساكنة في قصور الحي القديم، مثلما فضح هذه الطبقة البورجوازية التي ترى في الأجيال العربية الصاعدة عناصر متطفلة على السياسة، إذ يجب أن تبقى السياسة والقيادة بحوزتها، وضمن البيوت الكبيرة والعائلات العريقة] فالرواية تفرز بوضوح مَنْ هم ضد الوحدة، وهم كبار الرأسماليين والإقطاعيين والتجار وبقية باشوات العهد العثماني.

ويدافع العجيلي ويوضح سبب قبوله الاشتراك في وزارة الانفصال بعد الوحدة تحت دوافع وحدوية خالصة، فهو يدرك الآثار المترتبة على القطيعة بين مصر وسورية، ويقبل الاشتراك في الوزارة لهدف واحد، هو محاولة اقتناع

عبد الناصر برأب الشرخ واستعادة هذه الوحدة لكن بأسس سليمة تضمن لها البقاء وتبعد عنها ما ارتكب من أخطاء تحت شعارها، يقول: [قبلت المسؤولية حتى أعيد الوحدة مرة أخرى، وكان هذا شرطي قبل دخول الوزارة، كان الجيش منقسماً على نفسه بين الانفصاليين والوحدويين، وكانت البلاد مهددة بحرب أهلية، وكان علينا التدخل لإنقاذها من ذلك الغضب العارم للعسكريين، لقد حملنا مشروعاً جديداً للوحدة، وذهبنا إلى القاهرة، وقابلنا جمال عبد الناصر لكنه كان شاعراً بالإحباط، ولم يقتنع بصدق نياتنا ولا حرصنا على العمل القومي، كنت أودّ أن أحدثه عن نفسي، عن كل ما يجيش في صدري من أحلام قومية... كنت أودّ أن أحكي له عندما كنت حدثاً صغيراً وذهبت للتطوع مع المجاهدين في فلسطين، لكن الرجل كان حزيناً أكثر مما ينبغي، وقد نقل حزنه إلينا وعدنا خائبين.].

والعالم الذي جسده العجيلي في أعماله هو العالم الإنساني الواسع الذي تواصل معه خلال سفراته ورحلاته، وهو عالم رسم أبعاده في رواية (قناديل إشبيلية) وربط فيها بين همومه القومية والإنسانية، وبدت صورة هذا العالم في الغرب والشرق الأقصى وفي كل مكان قاتمة، فالظلام والرعب والخوف يسيطر على كل مكان، وبطلة قصة (الليل في كل مكان) تحمل قلباً إنسانياً كبيراً تريد أن تمدّ يدها لكل الناس، لكن أوربا مازالت تعيش كابوس الحرب، وقد نصحها صديقها العربي ألاَّ تهاجر إلى المشرق العربي، فهو ليس كما تحلم به جنة يفيض من أنهارها العسل واللبن، إنه لا يفيض إلا على قلّة من المتحكمين برقاب الفقراء والمستغلين الأجانب، إنه داء العصر الذي التهمت فيه المادة كل القيم الإنسانية، وهو الذي أفرز الصهيونية في

مطامعها الجشعة كما صورها في قصة «بنادق الجليل»، وقصة «ساعة الملازم» فهي في مدّها ومساندة الغرب لها لا تستهدف فلسطين بل الشرق العربي كله والأمة العربية كلها، لكن العرب لم يعوا هذه الحقيقة إلا متأخراً، وربما لم يعها بعضهم إلى اليوم.

دفاع العجيلي عن الحرية وكرامة الإنسان هما الناظم لكل ما كتب، فهو صاحب فكر حر وصادق، ومن هنا عدّ نفسه كاتباً ملتزماً لا يكتب إلا في المجال الذي يستثير حريته وكرامته الإنسانية، فجاء أدبه صادقاً بعيداً من الزيف، لم يرفض الماضي وقيمه لأنه ماض، بل تعلّق بالجوانب الخيّرة منه، ودان الممارسات التراثية التي علقت بنفس الإنسان العربي، ولم يرفض الحداثة والمدنية والحضارة ويتقوقع على ذاته.

بل حاول أن يفهمها ويكتشفها من خلال رحلاته ومطالعاته، ولم ييأس من لقاء بين الشرق والغرب ظنه من سبقه من الأدباء مستحيلاً، لكنه كان أقرب إلى الحذر من هذه المدنية وقيمها التي أفسدت الضمائر والقلوب، فكانت تطلعاته إلى كشف هذا العالم تطلع الريفي البدوي الذي يقبل على عالم مغاير لكل قيمه، بعدما غادر الحب قلوب الناس واهتز سلم القيم فأصبح الحب سلعة، واللطف وسيلة للمنافع والمكاسب، فآثر أن يظل بدوياً ريفياً في قيمه دون أن يدير وجهه للتقدم والتحديث، وأن تكون النقلة سليمة من انهيار القيم الأصيلة التي تعلي كرامة الإنسان... يقول في تحرير المرأة: [المجتمع الذي تسلب فيه المرأة حقوقها السياسية والاقتصادية والاجتماعية هو مجتمع متخلف، ولا يزول تخلّفه مادام سلب هذه الحقوق واقعاً، وكذلك الأمر في مجتمع تُسلب فيه حقوق الرجل. وإن المجتمعات التي تسلب فيها الحقوق كثيرة، وهي متخلفة حتماً، واستعادة المرأة حقوقها

لا يعني توسيعاً يتجاوز استعادة الحقوق، أنا مع حرية المرأة التي لا ينقص منها استلاب أي حق لها كشريك مماثل للرجل في الحقوق والواجبات.

لكنني لست مع المفهوم الذي يقول بتحررها من واجباتها الخاصة التي تفرضها طبيعة تكوينها ووظيفتها في المجتمع، كالاستنكاف عن الأمومة مثلاً أي الحمل والإرضاع... أقول بالتحرر من القيود لا التحرر من الواجبات الذي هو فوضى وتهديم]

* * *

ويحدد العجيلي دوافع الكتابة، فيراها محاولة منه في التعبير عن نفسه بعد أن تجاوز مرحلة التقليد، وأن الشعر استهواه في شبابه، لكنه اكتشف قصور موهبته الشعرية، وقصور الشعر بصيغته التقليدية عن استيعاب المستجدات العصرية، ويشير إلى أنه آثر القصة إذ رأى فيها [الوعاء الشامل الذي يستطيع أن يصب فيه الشعر والسياسة والفلسفة والتطلعات العلمية] لكن تفضيله فن القصة لم يكن تقليداً للأدباء الذين هجروا الشعر وتحولوا إلى القصة قبله، بل كان اختياره مبنياً على أنه اكتشف موهبته في القص حتى في حديثه مع الناس ومع مرضاه، ولا يشير العجيلي إلى المؤثرات التي أسهمت في موهبته القصصية، ربما كان للقصص الشعبي البدوي الذي كان متداولاً في بيئته وفي مجالس السمر أثر في ذلك، وإن هذه القصص تتناول عالم البادية ومغامرات الحب والفروسية، ويتخللها شعر بدوي يوقّعه القاص على أنغام الربابة، ويعزو العجيلي تحرره من بعض شروط القصة الفنية أو الرواية إلى أحوال عمله، وضيق الوقت الذي دفعه إلى اختصار مشروع روايات لديه أخذت نهج القصة، فهو لم يلتزم بصرامة القيود الفنية التي تميز بين القصة والرواية بسبب بُعده من التقليد وطبيعة سرده التي

تجمع بين القصة والحكاية الشعبية، فجاء أسلوبه طليقاً، وجاءت قصصه تحمل حرارة الحكاية الشعبية وتحررها من قيود القسر، تشدّ القارئ بطلاقتها، لكنها بدت مزيجاً من القصة القصيرة والرواية والحكاية الشعبية.. يقول: [لا تجد في قصتي الفترة الزمنية القصيرة التي تجري فيها أحداث القصص القصيرة الأخرى، أضطر إلى أن أعود إلى أزمان متقدمة على لسان الراوي، حتى أتهرب من فكرة الزمن المحدود في القصة القصيرة.. ولعل هذا ما يفسّر قولي إني كاتب رواية بالقوة والنية وكاتب قصة بالفعل].

ويرى العجيلي أن هوايته الأدبية متمم لرسالته الأساسية في الطب، فهي تأتي في الدرجة الثانية من اهتمامه، لكن رسالته الأدبية لا تقل جدية عن رسالته الطبية، بمعنى أنه يكون بكليته حتى يكتب ولا يلهو، أي يكتب بجد وإتقان ويضع في كتابته كل نفسه ـ كما يقول ـ فالأدب كالطب والسياسة والمشاركات الاجتماعية لون من التعبير عن الذات.

ويشير العجيلي إلى أن أبطال قصصه قلقون كنفسه القلقة، يبحثون عن مثلهم العليا، وهم مأزومون ومنكوبون دائماً، أو ضحايا. ويعلّل التشاؤم الذي يسود قصصه بأن شخصيات قصصه تصيبهم الفواجع لكنهم ينتصرون على اليأس، لأنهم جادون في كفاحهم وكبريائهم وتحديهم للحياة، فهم أقوى من العوائق، هم مثله مخلوقات بشرية تدرك ضعفها وضآلتها في مواجهة الكون الواسع، لكنهم يحملون من عنفوان النفس ما يدفعهم إلى الكفاح، وعن أسلوبه في قصصه يرفض العجيلي المقولة التي ترى ضرورة إنطاق الشخصيات بلغة عامية، [لأن ما يميّز البدوي أو الفلاح ليس ما يقوله من ألفاظ، بل مستوى تفكيره وطريقة تمثّله لفكره والتعبير عنه بلغته الخاصة التي تبرز من خلال الصور والمجازر التي يستخدمها حين يتحدث

بعيداً عن كونها عامية أو فصيحة، فالفارق في مستوى الفكر والتعبير عنه وليس في طبيعة اللغة والمفردات].

* * *

وأخيراً... قد نتساءل: أكان الدكتور عبد السلام العجيلي كاتباً واقعياً أم رومانسياً؟...

بعض دارسيه يلتمسون مظاهر من الرومانسية في أعماله من خلال احتفائه بالحلم وتمجيد الحب والنزعة المثالية الحالمة التي تتعالى على الواقع.

بينما يبدو كاتباً واقعياً في نزعته إلى تصوير الواقع والحياة بدقة متناهية، وبتفاصيل تعنى بالربط بين الإنسان وواقعه المحيط به في حدود الزمان والمكان، وقد عايش العجيلي تجليات هاتين المدرستين في أدب العصر الحديث، لكنه ظلّ حريصاً على استقلال قلمه من التمذهب الأدبي، يترجّح بينهما في الأثر الأدبي الواحد دون أن يلتزم مذهباً أدبياً معيّناً، تحت دوافع نزعته إلى الحرية الذاتية، وإيمانه بأنه الأديب الحرّ يعبّر عن ذاته وفق ما تمليه عليه نفسه بعيداً من التعليب الفني... يقول: [لقد نفرت دائماً من التقولب، أعني من صب نفسي في قالب جاهز من صنعي أو من صنع غيري، كما حرصت دائماً على حريتي الشخصية في التفكير مثل حرصي عليه في السلوك].

وربما كانت هذه النزعة إلى الحرية وراء نجاح الكاتب عبد السلام العجيلي في تقديم أعمال ناجحة، إذ ليس المهم أن نتقيد بالشروط الفنية أو التمذهب الأدبي لإنتاج إبداع أدبي مقبول، فما الفائدة أن يطبق الأديب هذه المبادئ إذا كانت قيداً يحدّ من حريته أو يقيّد إبداعه المتوهّج.

* * *

عبد السلام العجيلي
شاعر الليالي والنجوم

**(ما بيئة شعري إلا زاوية من الأرض
على شاطئ نهر عريض، وعلى
سيف بادية بعيدة الآفاق، أجمل
مواسمها ليلة تصحو السماء،
وتزهر النجوم ويملأ نور البدر
التلال والبقاع).**

ع. العجيلي

يُقال إن الموهبة تسعف صاحبها بأكثر من جناح، ليطير في مختلف العوالم، ويرقى بناء إلى الشمس التي لا ترتادها إلا النفوس المبدعة، ولنا في تاريخ الفن والعلم شواهد تؤيد هذه الحقيقة، على أن أصحاب المواهب المتعددة يتفاوتون اهتماماً وعناية بما يبدعون، وتتفاوت حظوظ أعماله التي ينتجونها شهرة وانتشاراً، فيُعرفون بجانب واحد من جوانب إبداعهم ويطوي النسيان الجوانب الأخرى أو يكاد.

وعبد السلام العجيلي قصّاص وشاعر، ولكن مَنْ يعرف اليوم العجيلي الشاعر...؟؟ إنه قصّاص فحسب في نظر كثير من دارسي الأدب والمثقفين.

والمسألة التي تطرح نفسها بالنسبة إلى الفنانين، متعددي المواهب هي: إلى أي حدّ كان يتمنى مثل هؤلاء أن يُعرفوا بجانب واحد من جوانب إبداعهم. وهل هم راضون عن طغيان جانب واحد من إبداعهم على الجوانب الأخرى...؟؟ ولنأخذ ليوناردو دافنشي مثلاً: كان فناناً عظيماً ورائداً من رواد النهضة العلمية لعصرنا الحديث، فهل كان يتمنى أن يُعرف بأحدهما أو كليهما...؟؟

وابن سينا فيلسوف وشاعر وطبيب لامع، من الجانب الذي كان يتمنى أن يكون؟؟

تلك حقيقة تحددها ظروف الإبداع الذاتية والاجتماعية، فالمبدع مسؤول عن شهرته بجانب معين دون آخر.

على قدر ما يصب اهتمامه في قناة معينة، ويسخّر لها جانباً كبيراً من موهبته، ولكن اهتمام المبدع وحده ليس كفيلاً بأن يرقى به إلى القمم، فثمة ظروف اجتماعية متعددة، تضع نتاجه في القمة أو تدرجه في السفح، على قدر ما يتنافس المبدعون في عصره للوصول إلى القمة، على قدر ما تتجلى موهبته الذاتية، وتصقل عبر مسيرة الإبداع المضيئة.

والعجيلي في ديوانه /الليالي والنجوم/ الصادر عن دار مجلة الأديب عام ١٩٥١ شاعر مرهف الحسّ، توافرت له الموهبة الشعرية وامتلك طرائق التعبير الشعري العربي عن طريق ثقافة لغوية متينة تتجلى في نسجه الشعري المتين، بل لعلّه من هذا الجانب يتجاوز كثيرين من معاصريه من الشعراء

البارزين، على أن هذه الصياغة كانت بحدّ ذاتها عائقاً كبيراً من عوائق سيرورة شعره في عصر تنافس فيه الشعراء في تجديد الشعر شكلاً ومضموناً، أما من حيث المضامين فقد شهدت فترة الأربعينيات والخمسينيات من هذا العصر في الوطن العربي وفي سورية بالذات نزوعاً إلى الشعر القومي ومناهضة للاستعمار، وانفتاحاً على الغرب، وأثرت كلّها في مسيرة الشعر، فغابت أغراض وجدانية لم تعد تتفق وطبيعة العصر، انحسر الشعر الغزلي الوجداني الهامس الذي رسّخه شعراء المهجر، وغابت النزعات الرومانسية الحالمة، ليحلّ محلّها غزل صريح، لبس فيه نزار قباني عباءة امرئ القيس وعمر بن أبي ربيعة، ولكنها عباءة عصرية يفوح منها عطر النساء، والمفاهيم المدنية العصرية في الحب والجنس، وطوى الزمن صفحة الشعر العذري الذي هو ألصق بحياة البداوة، لبس هذا الشعر الغزلي الجديد ثوباً ناعماً من الصياغة يقترب من الجماهير، ويتحدث إليهم ببساطة وعذوبة.

وفي المجال القومي كانت حركة التحرر الوطني تموج بها الشوارع على صورة شعارات وطنية مركزة، ومن ورائها أحزاب سياسية لها شعراؤها.

فطغى هذا الشعر القومي على الشعر الوجداني الذاتي ولاسيما بعد ظهور القضية الفلسطينية، فأصبحت السيادة للشعر الملتزم، لأن المسألة القومية أصبحت شغل الجماهير وهمّ الأمة الأول.

وفي مستوى الصياغة الشعرية، برز شعر التفعيلة على يد شعراء عمالقة ومنهم بدر شاكر السياب، فرسموا مسيرة جديدة بعد أن كان تجديد المهجريين ينحصر في استكمال مابدأت به الموشحات من خروج على الأوزان التقليدية والتماس لغة شعرية متطورة تتجاوز الموروث الشعري التقليدي.

في هذا الوسط الذي يرهص بولادة جديدة لنمط حديث من الشعر حاول عبد السلام العجيلي أن يمارس الشعر فأقبل عليه وفي نفسه شيء من التهيّب والتردد، وفي أعماقه إحساس بأن ميدان الشعر ليس هو المجال الأول لإبداعه، يقول في مقدمة ديوانه:

(إن الذين سيقرؤون هذا الديوان قليلون، وأقل منهم بكثير أولئك الذين ستتاح لهم قراءته دون أن تسبق لهم بصاحبه معرفة وثيقة، وذلك لأن العدد المطبوع منه محدود. وقليل من ذلك العدد معروض للبيع.. وقد يكون مبعث هذا التدبير ضعف ثقتي بنفسي الشاعرة، وقد يكون مبعثه أمر آخر: أني قد نظمت الشعر كنت أحس بأن هذا الذي أنظمه همسات بين نفسي ونفسي. أخجل أحياناً وآنف أحياناً من أن تتطرق إلى أسماع الأنفس الأخرى...).

فالشاعر إذاً منكمش على قصائده، يتشبث بها لنفسه، وهو يجب في الوقت ذاته أن يكون لها ذيوع وشهرة، وليست هذه حال الموهوب الذي يريد لنفسه أن يشق طريقاً في الإبداع الأدبي، وهو يعلم أن الشعراء يلتمسون شتّى الوسائل للشهرة... ويتابعون مسيرتهم ويأخذون نتاجهم بالتحسين والتطوير إلى أن ينالوا ما يبتغون من المجد الأدبي.

إلى جانب هذا التهيب والخجل والانطواء فإن عبد السلام العجيلي قد توقف عن متابعة التجربة الشعرية بعد صدور ديوانه الأول، لا عن إخفاق لأن ديوانه لم يجد طريقه إلى الناس، بل لأنه هو ذاته لم يشأ أن يطوّر تجربته ويسعى إلى تحسينها وإغنائها. فقد كانت كتابة القصة همّه الأول. وماكان لهذا الشعر الذي ضمته دفتا الديوان أن يشقّ طريقه إلى الجماهير في تلك الظروف التي عرضتها لأسباب كثيرة من أبرزها:

١ ـ أن الشاعر حبس نفسه في مجالين من مجالات الشعر، هما:

الشعر القومي والشعر الوجداني الهامس، الرومانسي النزعة، الذي يعيش مع الطبيعة ويتغذى منها، ويفصح عن مشاعر مغرقة في الذاتية، وألوان من الحب الرقيق، يعكس خيبات أمل نفس متألمة، ولو جاء هذا الشعر في غير تلك المرحلة لكان له شأن آخر لأنه يعكس حساً مرهفاً وذوقاً رفيعاً في تحليل النفس، وقدرة على الاستغراق في الطبيعة لا تتأتى إلا لشاعر متمكن:

نـــام الرعـــاة عـــن القطيـــع ومقلتـــي لم تـــنعسِ
وغفـــتْ ميـــاه النهـــر في حـــضن الرمـــال الأملـــس
واستـــسلم الـــسهل الفـــسيح إلى الـــسكون المعـــرس
وأنـــا عـــلى ظهـــر الفـــرا ش كزهـــرة في المغـــرس
الفكـــر يـــسري كالـــشذا والـــروح رهـــن المحـــبس

* * *

يـــا بـــدر، يـــا بـــرد الرضـــا ب عـــلى الـــشفاه اللّعـــس
يـــا قبلـــة النـــور الرطيـــب عـــلى جبـــين الغلـــس
نـــام النـــدامى لـــيلهم وانفـــضّ رهـــط المجلـــس
والـــديك قـــد مـــلّ الـــصياح وبُـــحَّ صـــوت الهجـــرس
والقريـــة البيـــضاء ترْقـــد في الـــضياء الأخـــرس
فقـــم اســـكب النـــور النـــدي أغبُّـــهُ أو أحتـــسي
هـــات اســـقنيه أكؤســـاً الـــراحُ رِجـــسُ الأكـــؤسِ

* * *

تصوير رائع للطبيعة المتحدة بذاته، يذكرنا بلوحات الشعر المهجري وبراعة في الوصف ترفدها قوة في ملاحظة الأشياء، وموهبة قصاص يعرف كيف يفاجئك في عرضه، وقدرة على الرمز ولاسيما حين يربط بين الطبيعة ونفسه، فهي تشاركه في آلامه وتمد بينها وبين روحه جسوراً من التواصل والتآلف.

والشاعر أبداً خميلة عطشى تحن إلى الماء والفراتُ قربها، لكنها محرومة من فيضه الدافق، وهو يحسد الشعاع من سنا البدر الذي صفته نور الشمس من كل ألم، وحرّرت خطواته من كل قيد. أما هو فطهّرت نفسَه الآلام، وقيّد الثرى خطاه:

تقاذفـــت الأجـــرام نـــورك مـــثلما
تحـــامتني الأرواح وهـــي لـــداتي
فجابـــت خطـــاك الكـــون وهـــي طليقـــة
وظلّـــت لـــصيقاً بـــالثرى خطـــواتي

وما كان لهذا الشعر الذاتي أن يجد طريقه إلى الناس في مرحلة تجاوزوا فيها المرحلة المهجرية الغنائية.

٢ ـ والسبب الآخر الذي حال بين العجيلي والشهرة في عالم الشعر أنه ظل حبيس اللغة الموروثة، على تمكنه من الأداء اللغوي المتين، في عصر تفتحت فيه أبواب التجديد، وابتعد فيه الناس عن التراث، فلم تعد كلمات شعرية تكررت كثيراً في تراثنا الشعري كبساط السندس وعيون النرجس وأسرار الحندس ورهن المحبس تحرّك الناس، ولم تعد هذه القافية الرتيبة المتكررة تُثير مشاعرهم، ولم تعد المباشرة في التناول الشعري محمودة عند المجددين، ويبدو أن العجيلي كان على اطلاع جيد على المحاولات التجديدية

في الشعر في عصره، ولاسيما أنه طبع ديوانه في دار مجلة الأديب، وقد فتحت هذه المجلة ومجلة الآداب ومجلة شعر صدورها لهذه المحاولات الجديدة غير أنها لم تكن قد أخذت أبعادها بوضوح، أو أن ثقافته الأصيلة وفهمه للشعر قد حالتا دون مسايرة هذا التجديد.

على أننا نظلم العجيلي إذا حسبنا أنه لم يجدد في أشكال الشعر ومضامينه، فمن حيث المضامين نجد في ديوانه شعراً قومياً يتناول جوانب من النضال الوطني في مواجهة الاستعمار كرثائه لأحد الشهداء وتمجيده لشهداء النضال الفلسطيني، وأناشيده القومية، وهي أناشيد جيدة... مثل قوله في مجاهدي فلسطين:

لبيك يا داعي الفدا
إنا جعلنا الموعدا
للملتقى، حوض الردى
نحن كماة العرب، بيت المقدس
نفديه في يوم اللقاء بالأنفس
اسمع صهيل الخيل طيّ الفلس
من فوقها الفرسان يطوون المدى
لبيك ماداعي الفدا
إنا جعلنا الموعدا
للملتقى، حوض الردى.

* * *

وللعجيلي محاولة في وصف مدينة الأموات المصرية لا تقل جمالاً عن وصف خرائب بعلبك للشاعر خليل مطران وللشاعر شفيق معلوف، وآثار أسوان لأحمد شوقي.

والشاعر يتميز بالوصف غير أنه يختار لوحاته من الطبيعة، ويسبغ عليها من روحه مسحة من الألم والحزن لتكوين ذاتي فطر عليه، في حين تجد ألمه في قصصه يتحول إلى ثورة ونقد اجتماعي أو تهكم لاذع، ومدينة الموات هي مقابر الفراعنة في مصر، رسمها الشاعر بموسيقا فيها من الجلال والأسى فجاءت أشبه بسمفونية حزينة:

لمــــن القبـــاب تـــروع والأســــوارُ
وزخــــارفُ حـــارت بهــا الأبـــصارُ
ومـــــآذن للــــــريح فيهــــا دعــــوة
تنــــامن لهـــا همــمٌ وثـــار غبـــار
لاحـــــيّ في حـــــيّ المنيـــة والــــردى
إلا الـــصخور تـــئن والأحجـــار
بــــين المـــساكين وحـــشة قتّالـــة
المــوت يحــسد ظلهــا ويغـــار
وعـــلى القبـــاب مـــن الـــسكون نـــوادبٌ
سُـكَّتْ بـصوت عويلهـا الأبـصار
فقـــراء والأشـــباح مـــلء دروبهـــا
ومـــن الفجيعـــة جحفـــل جـــرار

تحبـــــو الحيـــــاة مروعـــــة في جنبهـــــا
وتـــــدبُّ في عرصـــــاتها الأفكـــــار
ويذوب ضوء الشمس فوق صخورها
فـــرق الغـــضار إذا اعترتـــه النـــار
تلـــــك البيـــــوت جمـــــاجم منحوتـــــة
فيهـــــا مـــــراحٌ للـــــبلى ومثـــــار
ترنـــــو مـــــن الكـــــوات فيهـــــا أعـــــين
شـــــوهاء لا مقـــــل ولا أبـــــصار
لمـــــا مـــــشينا والحيـــــاة بظلهـــــا
نفـــضت مراقـــدَ يومهـــا الأوكـــار
وتملمـــــل الأمـــــوات في أجـــــداثها
لمـــا عـــلا مـــن صـــخبنا إعـــصار
(ركـــــبُ الحيـــــاة) ويالتلـــــك معـــــرة
يختـــال لا يثنـــي خطـــاه وقـــار)

* * *

وأما تجديده في الأشكال الشعرية، فإن الديوان يحفل بمحاولات جادة لكسر حدّة القافية التقليدية، وتطويع الأوزان الشعرية للتعبير عن الحالة النفسية للشاعر، فتكثر فيه المقطوعات المتناوبة الأجزاء التي نُظمت على إيقاعين أو وزنين شعريين متناوبين، وكثيراً ما يراوح في هذا الأسلوب

حين يمزج بين الوصف والمناجاة الذاتية، ولعلّ الأبيات التالية توضح هذه المحاولة الجديدة بالاهتمام:

في مسمعي من وقع قَطرِ العارضِ

ألوانُ ألحانٍ وسمرٍ غامضِ

أنَّ الكثيبُ لَوْبلِهِ لما همى

فضغا يردّ الحزن لحناً أبكما

نغماً أجشُ كأنما ماء السما

في صفعةِ للرمل أسواطُ العذابْ

جلدَتْ به ظهر الكثيب يدُ السحاب

في كل قاطرة دموع أو دما

فوق الرمال الصفر منه، وانتحاب

وهي محاولة في تجديد الوزن الشعري تقع موقعاً وسطاً بين الموشحات وشعر التفعيلة، ولو تابع الشعراء هذا النهج في تجديده بنية القصيدة العربية لكان لهذه القصيدة آفاق رائعة من الموسيقا والجمال، قد تتجاوز ما بلغته الآن في شعر التفعيلة، وفيما يلي نمط آخر من الأنماط التي اعتمدها العجيلي في تحديده البنية الشعرية لقصيدته:

أهدابك الوطفاء رفّت بالحنين فوق روحي

ساءلتها عن سر عينيك الدفين عمّ روحي

فأجابت نحن في أسرِ هواها كيف ندري؟

أيّ سرّ غيبته مقلتاها		أيَّ سر؟
وسألت طيفك حين أهداني همومي		والعذابا
ما سر عينيك المسلسل بالوجوم		فأجابا
هل أنا إلا شعاع من رؤاها		كيف أدري؟
أيّ سر غيبته مقلتاها		أيُّ سرّ؟

* * *

ولا يخفى أن العجيلي كثيراً ما يعتمد على موهبته، وهو القصاص، في عقد محاورات شعرية، واعتماد مفاجآت لا يتوقعها القارئ، ولو وسّع محاولاته في كتابة القصة الشعرية لكان له فيها شأن، وقد استعاد من قدرته القصصية في تحليل مشاعره الذاتية بعمق، فكان شعره كما قال في مقدمة ديوانه: (مرآة نفسه)، وهي نفس حزينة متألمة، تعاني من خيبة أمل دفين، وتنزع إلى العزلة والهرب إلى أحضان الطبيعة، ولعلّ من الصعب علينا أن نتعرف أو نكتشف هذه الذات من خلال قصصه للالتحام الذاتي بالموضوعي فيها التحاماً قوياً.

هذا هو عبد السلام العجيلي الشاعر، بدويٌّ نبذته الحضارة فاختار بيته على مشارف الصحراء في ظل خميلة ترنو إلى ماء الفرات، يلفحها الهجير بسياط العذاب، ومن هذه الخميلة راح يغني على ربابته ألحاناً لقوم لم يعودوا يطربون للسماع القديم، ويفجر من أعماق روح مرهفة أحاسيس نسيها الناس في صخب الحضارة المجلوبة التي بدّلت ذلك البدوي الفطري الصافي والصادق فينا.

عبد السلام العجيلي... والقصة القصيرة

نال الدكتور «عبد السلام العجيلي» اهتمام الأوساط الأدبية بنتاجه ودراساته في القصة والرواية والنقد. وقد أغنى تجاربه وخبراته انخراطه في العمل السياسي، وأسفاره ومشاركاته في التظاهرات الثقافية العربية والدولية وإتقانه اللغة الفرنسية وقراءاته الواسعة للتراث والأدب المترجم، فهو رائد من الرواد الذين ذللوا الطريق لأجيال من المبدعين في مجال القصة العربية في فترة الثلاثينيات، وهو كثير الاهتمام في قصصه بالإنسان الذي يعده عالماً قائماً بذاته، قادراً على تجاوز القوانين المادية التي تحكم الكون إلى آفاق وتطلعات تمنح الحياة معناها.

ونلاحظ أن نماذجه الإنسانية واقعية كثيرة التنوع ضمن القيم التي يتبناها البشر، فعلى ضآلة شأن هذا المخلوق وعجزه يستطيع كفاحه وتعاليه أن يكافح للوصول إلى أهداف سامية من أبرزها في نظره: تحكيم العقل وسيادة الروح العلمية والبحث عن المطلق.

كما نلاحظ أن واقعية قصص عبد السلام غرائبية، بمعنى أنه يختار الأجواء الإنسانية الخاصة التي يندر وقوعها، وتتسم بغرابتها، مما تمليه مصادفات الحياة، أو المشاعر الخاصة التي تثير في نفس القارئ الدهشة والاستغراب، ويُحسن الكاتب عرضها بأسلوب شائق يقوم على تأخير الحل والتمهيد له بالوصف الدقيق والتحليل النفسي.

ونلاحظ أيضاً في نتاج «العجيلي» لوناً من التطور يتجاوز فيه التركيز على الأحداث إلى العناية بالمواقف النفسية، وتجسيد غنى الروح البشرية وتطلعاتها، فالقصة عنده لم تعد حادثة تُروى، بل أصبحت تعبيراً عن قدرة الكاتب الفنية في العرض والتشويق، وتجسيداً لثقافته وفهمه العميق للنفس الإنسانية.

عُنِيَ «عبد السلام العجيلي» بتصوير بيئته الريفية البدوية، ثم تجاوزها إلى حياة الإنسان العربي في المدن. ونلمس ذلك في روايته (أزاهير تشرين المدماة) إذ يبرز الكاتب عظمة الأبطال الذين استشهدوا في سبيل مثلهم العليا.

وفي قصة (ألوان الحب الثلاثة) يحاول كسر الحدود بين الطبقات فيقيم علاقات إنسانية بين أبطاله من الطبقة البورجوازية والطبقات الشعبية الدنيا، ليبرهن أن طموحات الإنسان المادية تتضاءل أمام عطشه الإنساني إلى الآخر. فالانتماء الإنساني عنده أسمى من الانتماء الطبقي.

وعلى الرغم من اطلاع «عبد السلام العجيلي» على الآداب العالمية فقد بدا نتاجه عربي الطابع، من حيث ابتعاده عن النزعات الفنية المتطرفة التي سادت القصة الحديثة، فسلم نتاجه من التمرد والإحساس الحاد بغربة الإنسان وضياعه، فثمة بارقة أمل بالخلاص الإنساني على الرغم من قسوة عالمنا وشروطه اللا إنسانية التي تسحق الفرد تحت وطأة القهر والاستلاب.

وقد يقترب «عبد السلام العجيلي» في واقعيته من «محمود تيمور» بطريقة العرض والتصميم الفني للحبكة واختيار نماذجه من الواقع واعتماد اللغة العربية الفصيحة المنتقاة، إلا أنه يتفرد بالإلحاح على القيم التي يجب أن تسود في الوطن العربي، ومن أبرزها الروح العلمية، والتطلع إلى المعرفة، واحترام إنسانية الإنسان.

في مجموعته القصصية (مجهولة على الطريق) يبدو «العجيلي» محافظاً على منطلقاته الفنية في القصة والعمل القصصي، باتزانه في تصوير الحياة، وإلحاحه في اختيار المواقف الغريبة، والنماذج الإنسانية الخاصة.. ففي قصة (الضحية) يُبرز التحولات التي طرأت على المجتمع العربي، وبدّلت جوهر الإنسان من خلال شخصية خطيب «مي» الشاب يوسف الذي يمثل والعصابة التي تتعاون معه الوصولية التي استشرت إلى درجة محاولة خيانة الوطن، وتسليم معلومات خطيرة لأعدائه تحت دوافع مادية، ويدير «يوسف» وخطيبته مؤامرة للتوصل إلى المعلومات المتعلقة بأسرار اقتصادية تبنتها الدولة، وكتمت أمرها، وتنخرط «مي» مع خطيبها في المؤامرة، فتتقرب من الوزير المسؤول عن هذه المعلومات بحجة أنها مهتمة بفكر هذا الوزير الباحث والمفكر، وتستدرجه لتنال بغيتها، غير أن شعاعاً من الحب يغمر قلبها، فتتعلق بالوزير المهندس، وتصارحه في اللحظة الأخيرة بالمؤامرة، إلا أن العصابة ويوسف ـ خطيب مي ـ تتمكن من تصفية الفتاة لئلا يفتضح أمرها، وبذلك ينتصر عنصر الخير في نهاية القصة، وتتجلى عظمة البطلة في التضحية بذاتها تحت دافع الحب، وتبكيت الضمير...

ولاتقل «ليلى» بطلة قصة (الحاج) تضحية عن زميلتها «مي» فقد قدمت نفسها ضحية للعلم، وهي الطالبة الجامعية في قسم التاريخ، إذ دفعها هوسها العلمي إلى اقتحام المخاطر في رحلة قامت بها وفريق من زملائها إلى مدينة (البتراء)، وتولّت شرح معالمها التاريخية لزملائها، إلا أن حماستها للعلم دفعتها إلى التوغل في وادي (الخراريب)، من مناطق آثار البتراء، على مافيه من أخطار الضياع أو السقوط في وهاده، وتضيع الفتاة... ويبحث

عنها المشرف على الرحلة عبثاً، ويشاركه في البحث عدد من رجال الشرطة دون جدوى، ويعود المشرف بعد ثلاثين عاماً في طريقه إلى الحج، فيعرج على (البتراء) ليرضي شعوره المأساوي بفقد «ليلى» فيرى عجوزاً بيضاء البشرة تمارس قراءة الودع، ويختلف شكلها عن نساء البدو اللواتي يمارسن هذه الحرفة، فيداخله شك بأن تكون «ليلى» ذاتها، ولعلها سقطت في الرحلة من جرف عال، وفقدت ذاكرتها، فعثر عليها البدو، وعاشت بينهم، وتدفع الأستاذ المشرف غرابة الموقف إلى الهرب، فيغادر البتراء وفي نفسه حزن متجدد، وألم مكتوم، ولم يجرؤ على الإفصاح عنهما.

والبطلة في قصة (مجهولة على الطريق) إنسانة سحقتها الأعراف والرقابة الاجتماعية، لكنها تحدت هذه الأعراف، وتطلعت إلى الحب على الرغم من القيود الصارمة التي تفرضها البيئة، فالتمسته في شخصية مهندس غريب وفد إلى المدينة وسكن في الشقة المقابلة لسكنها، فكانت تراقبه وتسعى لوصاله وهو غافل عنها. حاولت أن تستوقفه مرة وهو في سيارته، لكنه خشي على سمعته فلم يستجب لإشارتها، فراحت تعاكسه في الهاتف، وهو يتشوق للقائها دون أن يفلح إلى أن قرب موعد مغادرته المدينة، فاستدعته في الهاتف، وطلبت إليه أن ينتظرها في سيارته بعد منتصف الليل، وكان لقاء وجولة في محيط المدينة، وقبلة لاهبة طلب بعدها المهندس أن تصعد إلى غرفته، فأبت طلبه لأنها تعرف أن الرجال يطمعون بما بعد القبلة، كانت ربة منزل تصرفت بغرابة بدافع الحب والتحدي ثم تركت في نفس المهندس ذكرى لا تمحوها الأيام.

القصص القصيرة الواردة في المجموعة هي أشبه بلوحات إنسانية موجزة، يطيب للكاتب «العجيلي» أن يسميها قصصاً غير واقعية، لأنه

تخيلها، لكنها في الحقيقة تعكس نقداً اجتماعياً لاذعاً للمجتمع العربي.. ففي قصة (الساعة) يظهر الكاتب بذكاء التخلف الذي تعانيه المؤسسات الرسمية في وضعها الراهن، فساعة الوزارة تمشي عقاربها للخلف، ويسأل الراوي الذي لم يعد يراها على واجهة البناء عن مصيرها فيقال له: إنها نسقت لأن المسؤولين اكتشفوا أنها ساعة صادقة تقول الحقيقة، لذلك عوقبت بالعزل من الوجود..

ولا تقل قصة (دفعوا أكثر) عن القصة السابقة التفاتاً إلى معالجة ظاهرة الفساد الاجتماعي والتسلط والرشوة التي استشرت في الدوائر الحكومية، فبطل القصة يتعرض لحادثة نشل وهو يقف في الزحام على أحد الأفران طلباً للخبز، ويشك برجل وراءه ضخم الجثة يرتدي جلابية فضفاضة، فيفتشه دون جدوى، ويذهب إلى قسم الشرطة، فيسأله الضابط هل رأى خلفه رجلاً له المواصفات ذاتها التي تنطبق على الواقف خلفه؟.. فيؤكد المنشول للضابط أنه الرجل ذاته الذي كان خلفه، ويرجوه أن يُعيد له ما نشل منه ولو كان أقل من ذلك بربع المبلغ، إلا أن الضابط بعد أن يعده خيراً ينزلق لسانه فيقول له: لقد دفعوا أكثر، ثم يعلمه أنه لا يستطيع أن يحصل المبلغ، وليعوضه الله ما سرق منه.

وفي قصة (راكي) يسرد الكاتب مأساة شاب فقير تخلف مراراً عن الجندية، فتمت مضاعفة خدمته حتى أمضى في السجون العسكرية خمسة عشر عاماً نسي فيها أمه وأباه، وأصبح يعتقد أن الدولة هي أمه، فهي تؤويه وتطعمه ولا يعرف له سنداً سواها.

* * *

يعتمد الكاتب الدكتور «عبد السلام العجيلي» أسلوب السرد أو التداعي الحر بلسان الشخصيات أبطال قصصه، ويمزج بين السرد والحوار، وهو يعنى برسم المفارقات الإنسانية كتلك المفارقة التي أقامها بين الأستاذ الجامعي الذي هجر التدريس إلى العمل التجاري بدافع الربح، لكنه ظل تحت تأثير علمه وثقافته أكثر إنسانية وتطلعاً إلى المُثل النبيلة من زميله التاجر الأمي والناجح في أعماله. لكنه لا يفهم من الحياة إلا جمع المال وتكديس الثروات، وهو يرجو رضا ربه بالحج إلى بيت الله الحرام، ولا يأبه كثيراً لمأساة الفتاة الجامعية التي ضاعت في البترا وما زال زميله الأستاذ يتذكر حادثتها ويتألم لمصيرها.

تعكس قصص «العجيلي» رؤية الكاتب الإنسانية، فهو يؤمن بأن الإنسان قادر على أن يتحدى الصعاب، أو يصعد من ميوله المكبوتة بالعوائق المختلفة، وكفاحه لإزالة الظلم، وأن الوصول إلى أهدافه كفيل أن يرقى به إلى آفاق من النبل والشجاعة.

قد يخفق في تحقيق هدفه ولكنه تحدى وناضل، وقد يسقط أحياناً لكنه يملك القدرة على تحقيق إنسانيته ولو دفع ثمنها غالياً..

ومقابل الهبوط في أساليب التعبير التي نلحظها عند كتاب القصة اليوم تحت ذريعة الاقتراب من الواقع.. يظل الدكتور عبد السلام العجيلي شامخاً في تعبيره، بارعاً في تجسيد المشاعر والأفكار بلغة صافية، فصيحة، تثير الإعجاب، وتعكس حرصه على سلامة اللغة وثقته بأنها قادرة على التعبير عن أدق خلجات النفس، فالواقعية في نظره أن يرقى الكاتب إلى مستوى اللغة القومية في كتابة القصة، لا أن يهبط بمستوى تعبيره، لأن ذلك الهبوط منافٍ للواقع الحقيقي، ومساير لواقع مريض نسعى إلى ترسيخه...

الرواية في أدب عبد السلام العجيلي

بدأ الدكتور عبد السلام العجيلي حياته الأدبية كاتب قصة يصوّر واقع المجتمع الريفي البدوي المتمسك بأعرافه وتقاليده في الشمال السوري، حكايات يسمعها أو يؤلفها وليسبغ عليها الطابع الفني وأسلوبه الشائق. ولعله لمس أن المجتمع الضيق الساكن لا يتيح له أن يتناول عالم الرواية بما فيها من رصد للمجتمع والتغير الذي يمليه التطور. فالمدينة الوحيدة التي عاش فيها طبيباً لم تكتسِ طابع المدن، ظلّت أشبه بقرية كبيرة تسودها النزعة العشائرية والموروث الاجتماعي منعزلة عن التغيير المدني أو الاجتماعي، ومن المسلّم به أن التطور والتغيير ينطلقان من العاصمة والمدن المنفتحة على المدينة.

لقد تطلع «العجيلي» إلى نقلة أدبية يتحول من خلالها إلى كتابة الرواية بما تتطلبه من صراع اجتماعي ورصد لحركة التغيير الاجتماعي في المجتمع العربي السوري، فكان مضطراً أن يتناول في رواياته عالم العاصمة بما فيها من حركة ثقافية وسياسية، ونزوع إلى الثورة على الواقع، ولم يكن إلمامه بخصائص التركيبة الاجتماعية في العاصمة.

صحيح أنه عاش في دمشق زمناً، لكنه لم ينفذ إلى أعماق جذورها الاجتماعية وموروثها الإنساني، كانت في نظره كأي عاصمة مرفقاً تجارياً

ومسرحاً للصفقات المادية، يضحي الإنسان بقيمه في سبيل تحقيق مكاسبه المادية، وبدا المثقفون من خلال رواياته طبقة هشّة مندفعة إلى التغيير لكنها سريعة الانكسار والتراجع عن الهدف، طبقة يشارك في قيادتها مهاجرون مثقفون من الريف غير متمرسين بتجربة نضالية صلبة، ولم يتبصّروا جيداً لعبة الكسب والخسارة التي مارسها المدني عبر عصور طويلة من التجارة والتدبر، فاكتسب مرونة وخبرة... لقد صور الكاتب عبد السلام العجيلي الواقع في روايتيه المعروفتين:

١ ـ باسمة بين الدموع.

٢ ـ قلوب على الأسلاك.

* * *

١- باسمة بين الدموع:

تجري أحداث رواية «باسمة بين الدموع» للدكتور عبد السلام العجيلي في أثناء الحكم الوطني لسورية خلال الخمسينيات من القرن العشرين، ومسرح هذه الأحداث مدينة دمشق.. أما بطلها المحامي سليمان عطا الله، ابن الريف السوري والمقيم في دمشق، فهو محام ناجح، وخطيب بارع استطاع بمواهبه الأدبية ونشاطه الحزبي والاجتماعي والسياسي أن يشقّ طريقه إلى الساحة السياسية في بلدته الواقعة في الشمال السوري، وهو خصم لدود لسياسي آخر محنّك من الشمال، وبورجوازي أصيل ينتمي إلى الكتلة الوطنية التي قادت الدفة السياسية في سوريا بعد الاستقلال، وكان سليمان عطا الله يمثل جيل الشباب المعارض لرموز الإقطاع والرجعية، واستطاع عن طريق الأحزاب الوطنية والقومية واليسارية أن يقيم جبهة ناشطة تحاول زحزحة الجيل القديم عن مواقعه السياسية في قيادة المجتمع.

ويستخدم الكاتب عبد السلام العجيلي في روايته أسلوب السرد الروائي فيبدأ بسرد الحادث الذي تعرّض له سليمان عطا الله وهو يقود سيارته على طريق بيروت، كان حادثاً رهيباً كاد يعرضه للموت، فقد انحرفت السيارة عن الطريق وانحدرت في الوادي المجاور لولا أن القدر هيأ له صخرة تعترض طريقها وتحول دون انحدارها إلى قاع الوادي على

بعد مئات الأمتار نزولاً، وتستمر الرواية في عرض حياة سليمان وصلاته السياسية وعلاقاته الغرامية إلى أن تنتهي بمابدأت به، ويروي وقائعها سليمان عطا الله نفسه بطريقة تيار الوعي الداخلي، فيسرد الأحداث ويعلّق عليها، ويستخدم الكاتب «العجيلي» أسلوب الرسائل المتبادلة بين سليمان عطا الله ومحظيته «ناتاشا» أو باسمة، وهي رسائل تساعد في الكشف عن نفسيات الشخصيات، وإبراز نظرتها إلى الحياة وفلسفتها الفكرية، ومعتقداتها في شتى الأمور كالحب والجنس والسياسة. ومن هذه الشخصيات الدكتور الياس صديق سليمان عطا الله وظله في الحياة، لكنه يختلف عنه في الرؤية والسلوك ونمط التفكير.

و«هيام» شقيقة «باسمة» طالبة جامعية، تحب سليمان وتقدّر نبوغه، لكنها تكتشف أخيراً علاقته الغرامية بأختها الكبرى باسمة المدرّسة في ثانويات دمشق، فتصدمها حقيقة هذه العلاقة بالصميم، وتنصرف عن سليمان بعد خيبة أملها.

ومن شخصيات الرواية البارزة سعاد زوجة المحامي عبد الحليم، صديق سليمان، وهي لا تحب زوجها وتطمح إلى إقامة علاقة غرامية مع سليمان، الذي توزّعَ قلبه بين أربع نساء. باسمة المرأة الساحرة الجمال والسيدة المطلقة بعد زواج تقليدي مخفق، وشقيقتها الصبية المتفتحة وطالبة الجامعة المتعلقة بالفكر، والمعجبة بعدة شخصيات ومنهم سليمان، وسعاد زوجة صديقه التي يعجبها في سليمان جسده، «فقد كان في الثانية والثلاثين من عمره، طويلاً ذا قامة رياضية، وكانت عيناه عسليتين، وشعره أميل إلى الشقرة»، وسعاد الراقصة التي يفيء إليها سليمان في أزماته النفسية.

يلتقي سليمان «باسمة» في أحد المؤتمرات الحزبية، وتسمع باسمة خطبته عن سياسة الحزب الاقتصادية التي لاقت استحساناً، وألهبت القاعة بالتصفيق، ويلفت صديقه الدكتور الياس انتباهه إلى فتاة كان نظرها متعلقاً بسليمان طوال الخطبة وبعدها، وتقترب منه «باسمة» وتوجّه إليه سؤالاً يتعلق بالضمان الاجتماعي وجذوره في الفكر الإسلامي، ثم يوصلها بسيارته إلى منزلها برفقة زميله الياس، فتدعوهما إلى تناول فنجان من القهوة، فيتعرف هناك إلى أختها هيام، وتتوطد صلته بباسمة، وتتجدد اللقاءات بينهما بعد ذلك، ويشارك الياس في أول لقاء، فيدور الحديث فيه من الشباب، فيرى الياس أن الشباب خلق للمتعة وليس للسياسة، ويستشهد برأي المفكر الأميركي «كنيزي» الذي يرى أن الإنسان يتم نضجه في الثامنة عشرة حتى الخامسة والثلاثين وتضمحل قواه الجسدية بعد الأربعين، ويذهب سليمان إلى أن من الغفلة أن يضيّع الإنسان هذه الفترة من عمره في غير أمور الجنس أي بالأمور العقلية التي يجب أن تكون مثار الاهتمام بعد سن الأربعين، ويؤيد رأي «كينزي» ومداره أن الشباب هو موسم الحب، وفي اللقاء الثاني يلتقي سليمان بباسمة فيتجولان في أسواق دمشق، وتحدثه عن ماضيها وزواجها الخائب ويتواعدان على اللقاء في صبيحة الغد ليقوما برحلة مشتركة إلى شتورا، وفي الطريق يتحدثان عن شؤون الحب والسياسة، وينتهي بهما المطاف إلى بحمدون، حيث يتناولان طعام الغداء في فندقها، وفي كوخ ملحق بالفندق، ويحاول سليمان مغازلتها فتمتنع، لكنه يرى أن في تمنعها لوناً من الإغراء وفي نظرتها الواخزة إذلالاً لتفوقه الرجولي والفكري «وأن عليه أن يحطم اعتداد هذه النظرة وكبرياءها، فلما تهاوت بين ذراعيه لم تملك أن تدفع عن نفسها فضول أنامله... فكان جسدها كريشة في

مضطرب أهوائها»، وفي طريق عودتهما إلى دمشق كان سليمان يفكر بتلك العلاقة التي كُتبت له مع باسمة، وأين يمكنه أن يدرجها في فصول السلوك الأخلاقي، وهو الشخصية التي تطمح إلى الامتثال بكبار رجالات السياسة والاعتداد بمثلهم العليا، لم تكن صلته بباسمة حباً بل كانت لوناً من الاغتصاب أظهر من خلاله سليمان رجولة الرجل الشرقي وصلفه، وينصح الياس صديقه سليمان بأن باسمة لم تخلق له، وأن هياماً أختها أنسب له، ويعتمد في إقناعه على الاستهداء الشعاعي، وهو فن الاستدلال على الأجسام وتطوراتها بتقصي إشعاعاتها الكهرطيسية، ويوضح أنه استخدم للحكم على صلة سليمان بباسمة رقاصاً من العاج قادراً على إرشاده إلى مثل هذه الأمور، وأن تجربة الرقاص أثبتت له أن باسمة لا تصلح له.

لم يكن سليمان يؤمن بالحب، لكن باسمة ملكت لبه، فراح يتصرف كالمحبين ويطوف بسيارته حول بيتها، وكان يتصور أن لقاء «بحمدون» كان انتصاراً له ملك به زمام امرأة لا نظير لها، وفي جلسة بينه وبين باسمة والدكتور الياس، يفصح سليمان عن رأيه في الحب، فيرى فيه خدعة ضحكت بها الطبيعة على الإنسان للتناسل والتزاوج، فالعلاقة بين الرجل والمرأة هي محض حيوانية. وما الحب إلا ذلك الوسيط الذي يشبه دوره الذهب في العلاقات الاقتصادية، ويخالفه الياس فيرى أن الحب لون من الإيمان بالإنسان والنفس الإنسانية، فهو طبيب يعالج الجسد لكنه يصطدم بالنفس في كل مرحلة من مراحل العلاج. وينتقد سليمان ورأيه في الحب، فهو يفتقر إلى الإيمان، ولا يدرك أن في قلب المرأة ينابيع حب كبيرة لا تنضب إلا إذا كان الرجل جاهلاً لا يعرف كيف يفجرها، ويؤكد أن النساء يخضعن لدورات عاطفية يستغلّها الرجال. فالعلاقة بين الرجل والمرأة ليست

مقايضة، لأن قوانين القلب الإنساني لا تخضع للمقايضة وطلب الربح، وتتأثر «باسمة» بهذه الآراء وتصمم على مرافقة سليمان في سفره إلى «بحمدون» وشغلت سليمان فكرة الدورة العاطفية للمرأة، فكان يخشى أن تكون استجابة «باسمة» له لوناً من الاندفاع العاطفي العابر الذي سيزول بعد انتهاء دورة فتاته العاطفية، وفي الفندق الذي استقرا به مجدداً تصارحه «باسمة» بأنها تريد أن تنسى تلك الواقعة التي جمعتهما وتريد أن ينساها، كما تصارحه بأنها كانت في لحظة ضعف، لكن نداء الجسد لدى كليهما كان أقوى من الصدّ، فإن «باسمة» بعد تمنعها تنهار وتسلم سليمان جسدها. ثم تلتمس منه أن يتزوجها، ولم يكن سليمان مستعداً لتقبل هذه الفكرة، فيعتذر لها بلباقة ويذكّرها بعادات مجتمعه الريفي الذي يفرض على الشاب أن يتزوج من بيئته، وذرفت «باسمة» الدموع.

وفي دمشق يتلقى سليمان من باسمة رسائل تشير فيها إلى تردده وقد اتخذته مثلها الأعلى، فهي تطمح إلى العلياء، ولو رغبت في الزواج من إنسان عادي لوجدت عشرات من الرجال، لقد قهرها الحب فرأت في خضوعها له لوناً من البطولة والتسامي، وفناء المرأة في حب الرجل، وتلومه على ضعفه وعجزه عن أن يكون سيد قراره ونفسه، مع أنه سياسي يريد أن يقيم العدالة ويحقق مثله العليا، لكنه عاجز عن قهر نفسه وما يكبلها من عقد، وتريد أن يكون كما تصوّرته بطلها الذي تعشقه، وكان يؤلم سليمان أن تشك «باسمة» في قوته، وأن تتعلق به حتى العبادة، ويدرك أن علاقته بها قد تطورت إلى علاقة جسدية قوية، «كانت أفكار باسمة تدور في فلك الروح والنفس والعقل، بينما كان الذي يستأثر بها في كل لقاء هو الجسد وشهواته ولذائذه»، ولعلّ التحول في سلوكها الجسدي قد أدى إلى ذلك التحول في

سلوكها النفسي، فبعد كل لقاء كان يخالجها لون من الخجل أو الندم، إلا أنهما لا يثنيانها عن التمسك بسليمان والاعتزاز بصلتها به، في حين كان سليمان يغطي تلك العلاقة ويسوغها بحجة أنها رفيقته في الحزب، أما هي فلم يكن يهمها افتضاح أمرها، وماكان يراه فضيحة كانت تراه واقعاً وحقيقة، وتحرص على أن تراه في كل يوم، وتتقرى منه عن عشيقاته الأخريات، فيصارحها بعلاقته بالراقصة سعاد، ولم تكن تراعي شعور أهلها وتأخرها في الليالي عن البيت، وفي آخر لقاء لهما تنسى «باسمة» عقدها في غرفته، فلما اقتحمت أختها هيام بيته، وكانت تطمح أن تقيم علاقة حب معه، رأت العقد، وأدركت أن «باسمة» تلتقيه في علاقة عشق حميمة، فتثب فجأة وتخرج من منزله محبطة، وتقع فريسة المرض بسبب صدمتها النفسية، وهي التي أعجبت بمثالية سليمان ورأت فيه مثلها الأعلى في الرجل، وتدرك «باسمة» من تصرفات أختها أنها اكتشفت علاقتها به. فتبادر إلى إقناعه بالزواج منها، ويدهش سليمان لعرضها وهي التي تحبه، وينتابه صراع نفسي عنيف، فيفر إلى بيروت ويرتمي بأحضان «فرديريكا» الراقصة الأجنبية، ويذهله أن تلك الراقصة مع تردّيها وسقوطها تحتفظ بقيم ومبادئ نبيلة، فقد أعادت إليه ليراته الخمسين التي دفعها للتمتع بها، ثم أعرض عنها، وأفهمته أنها لا تريد منه صدقة، وفي لحظة يأس وجد نفسه يعترف لها بآلامه ومحنته، فتنصحه بالزواج بهيام، ويدخل المستشفى بعد حادثة تدهور سيارته، وإصابته بانقراص في فقراته، وتزوره باسمة في المشفى، وتجدد عرضها لسليمان بالزواج من أختها، فهي تدرك أنه إذا شفي سيطارد هيام، وستقع فريسة لإغوائه، لكنه يرفض عرضها، فتغادره يائسة.

وبعد شهور يتلقى منها رسالة تعلمه فيها أنها طلبت إعارتها مدرّسة للكويت، وأنها كتبت لهيام رسالة تدعي فيها أنها سلمت سليمان طوقها ليشتري لها مثله، وأنها تكلّفها استرداده، وستسافر غداً بالطائرة إلى عالمها الجديد، وأن علاقتهما لم تجن منها سوى اللذة ثم السأم والغثيان بعد الارتواء، فيسرع سليمان لوداعها، فلا يدرك الطائرة إلا عند إقلاعها، ولا يبصر إلا خيال باسمة والدموع تنساب فوق أهدابها الجميلة.

* * *

٢ ـ قلوب على الأسلاك:

في رواية «قلوب على الأسلاك» المتميزة للدكتور عبد السلام العجيلي تحليل للحياة الاجتماعية والسياسية في المجتمع السوري مابين الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، وهي فترة مابعد الاستقلال الوطني، حين تسلمت الطبقة البورجوازية مقاليد الحكم الوطني انتهاء بالوحدة ثم الانفصال.

صحيح أن الزمن الروائي لا يتجاوز المدّة الواقعة مابين «أول الربيع وأواسط الصيف من عام ١٩٦١» غير أن خواطر الشخصيات وذكرياتهم تمتد إلى مرحلة سابقة لاحقة، وتؤرخ لعشر سنوات خلت أو تلت مرحلة قلقة تمَّ فيها لون من الفرز الاجتماعي للطبقات، ونشوء الأحزاب الوطنية، والصراع بين الفئات المحافظة والمعتدلة والمتطرفة، وبين جيل الشباب المثقف والشيوخ.

يستخدم الكاتب عبد السلام العجيلي طريقة البوح أو الاعتراف بلسان بطل الرواية «طارق عمران» ويمزج البطل اعترافاته بأسلوب متميز مستعيداً ذكريات الماضي أو محلّلاً خلفيات الشخصيات التي يتحدث عنها.

ومع أن الكاتب يصرّح بلسان بطله أن ما تسرده الرواية ليس رواية ولا عملاً قصصياً بالمعنى الفني، وإنما هو وقائع الحياة، وسجل ذكريات وليس «مذكرات» بالمعنى الفني، فإن النص بما فيه من واقعية تسجيلية وحبكة فنية يصنف في باب الرواية الفنية.

تدور أحداث رواية «قلوب على الأسلاك» حول ذكريات «طارق عمران» الشاب الريفي الذي يفد من ريف حلب إلى مدينة دمشق في ربيع عام ١٩٦١، ليعمل في شركة للبناء والمقاولات يملكها عمه «عبد المجيد بك عمران» وهو يريد أن يدركه ليتسلم مكانه في إدارة الشركة وقد أضمر في نفسه إنه سيصفّي أعماله في دمشق وينقل نشاطه إلى أوربا بعد أن أصيب بخيبة أمل كبيرة، فقد كان يمنّي نفسه أن يحوز امتياز تنفيذ خط للتلفريك في دمشق، وعمل المستحيل ليتحقق حلمه، غير أن حكومة الوحدة لم تستجب لتنفيذ المشروع وآثرت التخلّي عن فكرته بسبب صراع القوى المتنافسة لتنفيذه، ويوطد عبد المجيد عمران صلته بالشخصيات القادرة على التوسط، ويستعين بالعنصر النسائي القادر على التأثير في الأوساط المعنية، ويبني حلمه على هذا الأساس، ويكلف ابن أخيه الشاب «طارق» أن يدخل في لعبة المشروع مستغلاً شبابه ومواهبه، فقد كان يتمتع بشباب ساحر، إضافة إلى مواهبه الأدبية، فهو شاعر رقيق، وباستطاعته ولوج الصالونات الأدبية والأوساط الثقافية، والنفاذ إلى الطبقة العليا من المجتمع، وخاصة سيدات الصالونات اللواتي يملكن القدرة على التأثير بأصحاب الشأن.

يتعرف «طارق» في الشركة إلى فتاة تدعى «هدى» وهي سكرتيره عمه، وقد سحره ذكاؤها، وإلمامها الواسع بشؤون الشركة وحرصها على متابعة أعمالها، ويكاد يقع في حبها، غير أنها كانت تضع في إصبعها خاتم خطوبة، ويدرك من احتكاكه بأسرتها التي دعته غير مرة لمائدتها أنها تضع الخاتم لتتخلص من المضايقات، وأنها ليست مخطوبة وهي عازفة عن الزواج، وفي تردده على بيت أهلها يلتقي أختها «ماجدة» الطالبة في المرحلة الثانوية، وهي

تختلف سلوكاً وطبعاً عن شقيقتها، فهي جريئة وصريحة إلى أبعد حدود الصراحة، تنتقد أنوثة أختها المتحفظة، ولا تتورع أن تزوره في شقته، وتحدثه عن الجنس بكل صراحة، وتغريه بإقامة علاقة معها على غرار زميلاتها في المدرسة اللواتي يصاحبن شباناً ويترددن إليهم، ويكتشف «طارق» أن ذلك التحلل الخلقي نابع من تربية مدرستها، فإن مدرسات «ماجدة» كما اعترفت يحدثن طالباتهن بأمور الحب والجنس، ولا تتورع إحداهن أن تبرهن لطالباتهن أنه لا فرق بين الحب والجنس، في جوهر العلاقات بين الرجل والمرأة، ويستغرب «طارق» ذلك التطرف في سلوك «ماجدة» وهو الفتى الريفي المحافظ لكنها تنتقد بشدة سلوكه الذي ترى فيه لوناً من النفاق الاجتماعي، ويضحي بقيمه أمام فتنتها، فيضعف أمامها ويعاشرها، لكنه يدرك أنها طفلة متورطة بالتحرر المندفع، فيطلب منها أن تعود إلى بيتها، وتكتم أمر ما جرى بينهما فلا تبوح به لأسرتها أو لأختها «هدى».

وإذا كانت «ماجدة» في الرواية ترمز إلى جيل الشباب المندفع والمتهوّر في طلب التحرر، فإن «نهاداً» تمثل المرأة البورجوازية المترفة، تقيم منتديات في صالونها وتستقبل رجال الأدب، لا حبّاً بالأدب بل لأنها تقلّد برعايتها الأدباء أبناء الطبقة المترفة، ويتردد «طارق» إلى صالون نهاد الأدبي، وسرعان ما يشقّ طريقه للوصول إلى أبناء الطبقة الغنية في دمشق وتعرّف شخصياتها، وبخاصة السيدات اللواتي وجدن في شعره أصالة، وفي جماله عنصر جذب، وكان عمه يمهّد له الطريق ويشجعه على كسب قلب نهاد لأنه يعرف نفوذها في الأوساط الحاكمة وقدرتها على مساعدته في مشروع التلفريك، وتقع «نهاد» في حبه وهي التي تزوجت زوجها من غير حب، ووطّدت علاقتها بزكي بك صاحب

الكلمة النافذة لدى الأوساط الرسمية، والذي أوحى إلى هذه الأوساط بعدم الموافقة على منح عبد المجيد عمران امتياز تنفيذ المشروع، وتقع نهاد في حب طارق ولكن بعد فوات الأوان، فقد عاد العم من القاهرة خائباً بعد أن قررت حكومة الوحدة تجميد المشروع، غير أن طارقاً يستغل نفوذ نهاد لتحرير «زهير» من السجن، وكان رجال الأمن قد اعتقلوه لمعارضته النظام، وقد عرفه طارق في أثناء تردده إلى مقهى «البرازيل» مستقر رجال الفكر والشباب المثقف آنذاك، وجلّهم من فئات سياسية وطنية أو يسارية معارضة تعكس الغليان الفكري والسياسي في تلك المرحلة، ولم يستطع طارق إلا أن يكون شاهداً على تلك الفترة، فقد كان في أعماقه ممزقاً بين ولائه لعمّه البورجوازي الثري وولائه للقيم الريفية التي حملها معه من القرية، وعزّز خياره ما شاهده من التناقض بين المبادئ التي يطلقها رجال الفكر والسياسة في مقهى البرازيل والممارسات السلوكية التي تصدر عنهم، فمن بينهم الدكتور زين العابدين الذي يدّعي الفكر ويكتب في التاريخ والسياسة، ويبيع كتبه مزوراً التاريخ والسياسة دون أن يبحث عن الحقيقة، وإنما يهمه ما يقبضه من ثمن لتزويره الفاضح للفكر والحقيقة، ومنهم «ممدوح» الشاب اليساري المتطرف والحاقد على البورجوازيين، لكنه لا يتورع عن العمل في شركة عبد المجيد بك مع أبيه، وشتمه في آن واحد، والارتماء بأحضان «زوزو» الراقصة، وهو إلى ذلك يحلم بتأميم الأرض والرأسمال ويؤمن بوجود جيل اشتراكي جديد «يطمع أن تكون الثروة لمجموع الشعب».

لم يكن حب طارق لماجدة ونهاد حباً حقيقياً، إنه في نظره نزوة من نزوات الشباب، لكن حبّه لصفية بدا له حباً حقيقياً، و«صفية» مدرّسة الآنسة «ماجدة»، وهي وأمثالها زرعن في جيل ماجدة بذور التمرد والثورة على

العادات والتقاليد، كانت ساحرة الجمال، متطرفة في أفكارها غير أنها لم تكن تتخلص من عقدة الشعور بالتعالي على أبناء الريف، والتعريض بهم وبتصرفاتهم وهي زوجة مهندس عمل لدى عبد المجيد بك في مشروع التلفريك قبل مجيء طارق إلى الشركة، وقد التقاها طارق في صالون السيدة نهاد بعد أن توفي زوجها، فأعجبت به، ولم تتورع عن ضرب موعد معه دون أن تفصح عن هويتها، ويلتقي العاشقان ويستقلان الترام إلى الغوطة، وتتوطد بينهما علاقة حب جارف، ويزورها طارق في بيتها، ويكتشف مدى اهتمامها بمشروع التلفريك الذي كان زوجها من مصممميه، ويتحفظ طارق أمامها عن الإدلاء بأي معلومات عن تطور موضوع المشروع لأن عمه أوصاه بالكتمان، خشية أن يستفيد خصومه من ذلك، ولا تستمر العلاقة طويلاً بين العاشقين، لأن صفية كانت مضطربة بين ولائها لذكرى زوجها الراحل وانتمائها لطبقة تختلف عن طبقة عبد المجيد بيك، ولاتجاه سياسي معارض. كانت نزوة حب عارضة سيطرت عليها وأسقطت طارقاً من حياتها.

وتمضي أحداث الرواية إلى خاتمتها المفاجئة، فقد قرر عبد المجيد عمران بعد إخفاق مشروعه مغادرة وطنه وتصفية أعماله في دمشق ونقل نشاطه إلى أوربا، ويكتشف طارق من عمه أن خاتم الخطبة الذي تلبسه هدى لم يكن زائفاً، فقد خطبها سراً وترك الأمر مكتوماً بينه وبين أهلها تمهيداً لسفره، وفي قلب هذا الاضطراب السياسي والاجتماعي واحتدام الصراع بين الفئات المتناحرة زمن الوحدة، يشعر عبد المجيد أن الانفصال آتٍ لا محالة، ويستشرف مستقبلاً كالحاً للبلاد يكون الانفصال فاتحة له، ويحاول طارق التهوين من مخاوف عمه، فيجيبه بمنطق البورجوازي المغلوب على أمره: [حين ينخر السوس دعامة، ويأتي عليها فإنك لا تدري أين يقف النخر، ومتى يتقوّض

البناء الواقف.. الحق إنها ليست سفينة البلاد، بل سفينة الآمال والمثل العليا هي التي تغرق، وتغرق فيها القيم التي آمن بها جيلنا...

يمكنك أن تقول: [إن خطر الغرق الذي أتوقعه مغالى فيه، وإن البلاد تظل بلادنا، ولو تغيّر نظام الحكم فيها، لن يملكها أجنبي ولن تحتلها إسرائيل، غير أني أبعد نظراً في هذا منك... وربما كنت أكثر إيماناً بالمثاليات على ما اشتهر به رجال الأعمال من ميكيافيلية... لو لم تقم الوحدة بين بلدينا لظلت قيمة الانفصال ضئيلة، أما أن يتم بعد تحقيق الوحدة فتلك الضربة القاصمة التي تنزل بهيكل مثلنا الأعلى وتهدد بتقويضه من أساسه..].

ويسافر العم، وتسافر معه زوجته، وهو في مغتربه ناجح في عمله، بعيد عن القلق غير أن موجة الاندفاع السياسي، والتطرف في الثورة على الواقع في ساحة الأحداث وفي سلوك الشخصيات القلقة في تلك الفترة لم تسفر عن أي خطر، فقد تحوّلت شخصية ماجدة التلميذة المتطرفة بعد عنفها إلى سكون، وهي الآن كما يقول طارق عمران «في طليعة السيدات المجدات» تضع على عينيها نظارتين سميكتين، مكبّة على دروسها، أما نهاد السيدة المترفة العابثة، فقد تركت زوجها وارتبطت بزكي بك الذي أصبح مسؤولاً كبيراً، وصفية الحبيبة التي تخلت عن طارق وجدت لها زوجاً بعد الحداد، ولم يثبت على حاله سوى الشاب ممدوح الذي صمد على حلمه، لا شجاعة منه كما يقول في إحدى رسائله إلى طارق، لكن عجزاً منه عن الهرب، ويختم طارق عمران اعترافاته قائلاً: [حين أعد الهاربين في هذه الحياة فلا أجد أكثر منهم، وحين أرى ما خلقه هذا الهروب المستديم من الكوارث أتعزّى بالكتابة، وأهرب إليها.. أليس هذا هو الهروب الحقيقي... الهروب الكبير..؟؟].

* * *

تبدو رواية «قلوب على الأسلاك» تحليلاً دقيقاً للتحول الكبير الذي هزّ المجتمع السوري بعد الاستقلال، هو تحوّل امتزج بلون من العنف السياسي والاجتماعي، واهتزت في دوامته نفوس الأجيال، بسبب خيبة الأمل التي تضخمت في نفوس الجماهير بعد الاستقلال، فقد وجدت نفسها تتحرر من المستعمر لترتمي بين فكي الاستغلال الطبقي المتمثل بالطبقة المستغلّة: التجار وأصحاب المصالح الذين كانوا أقسى على الوطن وأبنائه من المستعمر نفسه، على أن اندفاع الجماهير في الدفاع عن مصالحها كان من العنف، بحيث سلم الحكم للطبقة العسكرية التي قامت بتصفيات سياسية معتمدة على أجهزة القمع لديها، ولم يكن النضال الوطني في جوهره متماسكاً، بل كان هشّاً، توجهه المطامع الفردية والمكاسب الخاصة، حتى بدا كأن مسألة الوطن لا حلّ لها، وأن الابتسار في طلب الحل لا يجدي نفعاً، ولابدّ من التمحيص والنقد ودراسة الواقع قبل الارتماء في إغراء الحلول المثالية، كان كثير من المفكرين يرون الحلّ في قيام الوحدة، وكانت فئة تنادي بالتريث قبل الإقدام عليها، وأخرى تراجعت بعد قيامها وكانت مفعمة بالحماسة لها، وآخرون من اليساريين في الفكر كانوا يرون أن القضية هي قضية حرية، وأن القمع السلطوي هو مصدر كل العلل، في حين عالج آخرون مسألة الوطن من زاوية اقتصادية، ورأى بعضهم الخلل في طبيعة الشعب وعقلية الحكام، أن مشكلات الوطن السياسية بدت كما يقول ممدوح: [مثل كبة الخيوط المتداخلة، كبة خيوط ملتفة حول ضلوعنا لتحطمها.. والشطارة هي في أن تمسك براس الخيط، أي كيف تبدأ بالحل...].

وتكشف الرواية عن مغزى أساسي يلتقط من صفحاتها الأخيرة، ويمكن تلخيصه بما قاله طارق عمران، فإن الأحلام الفردية للإنسان قد تندمج بأحلام الجماعة وتتوحّد كما حدث في تلك الفترة، غير أن قسوة

الواقع ومنطق الحياة يدفعان بالكثيرين من أصحاب القيم والمبادئ إلى مصادرة أحلامهم الجمعية والانسياق وراء أحلامهم الفردية، بل تضطرهم الظروف إلى التخلّي عن مبادئهم إما طلباً للتكيّف الاجتماعي وإما مسايرة للحياة وإما طمعاً في حياة هادئة مريحة، فشخصيات الرواية شخصيات محبطة لا تستقر على حال، وهي تعبر عن رفضها بالثورة والاحتجاج على الواقع، لكنها في أعماقها شخصيات ضعيفة هشة قابلة للانكسار.

هل يعدّ ما كتبه الدكتور عبد السلام العجيلي رواية بالمعنى الفني...؟؟

أجل**...!** إن سيرة طارق عمران ليست شخصية فحسب، وإنما هي سيرة شعب بكامله في مرحلة من أخطر مراحل تاريخه، واستطاع الكاتب بواقعيته التسجيلية الدقيقة أن يوفر للنص كل مستلزمات الفن الروائي، من تصوير ونقد وتحليل، وحبكة تقوم على عرض الوقائع في إطارها المكاني والزماني، وتنطلق من الحديث عن حياة بطل الرواية إلى دراسة شريحة واسعة من حياة المجتمع الدمشقي.

وإذا كان عبد السلام العجيلي لم يهتم كثيراً بالفئات الاجتماعية الأخرى غير البورجوازية أو الطبقة المثقفة التي تشكل بورجوازية صغيرة، غير أنه عكس واقع الحال في تلك الفترة، فإن الطبقة المثقفة وحدها هي التي كانت تقود النضال العمالي والفلاحي في مواجهة الحكم الوطني ثم الحكم العسكري الذي أفرزته، ولم يكن للفئات الأخرى إلا دور التابع في هذا الصراع آنذاك، على أن عبد السلام العجيلي يرسم صورة للبورجوازية الدمشقية وقيمها تغاير تماماً الصورة التي رسمتها الكاتبة الدمشقية غادة السمان.. والتي تعرف جيداً هذه الطبقة التي تبدو لديها أقرب إلى الحفاظ والتدين واحترام العادات والتقاليد.

فقد تظهر تلك الطبقة لدى «العجيلي» وكأنها مفتونة بالتحلل من القيم. تؤمن بالمكيافيلية، ولا يردعها وازع من ضمير، وتبدو المرأة وكأنها تخلت عن كل ما يربطها بالماضي تحت تأثير موجة التحرر والتطرف السائدة، ومهما بلغ أثر الأفكار التحررية فليس من المعقول أن تتبذل فتاة كماجدة، فتنادي بحرية جنسية مطلقة، أو تتبنى مدرساتها إفساد الجيل، إن هذه الصورة المبالغ فيها ليست قائمة في الواقع إلا في تصورات الكاتب فما تزال الفتيات الدمشقيات حتى بعد ثلاثين عاماً من كتابة الرواية أقرب إلى الحفاظ على التقاليد، والبعد عن الرذيلة والاستهتار إلا فيما ندر... وعلى الرغم من برودة السرد التي فرضها حرص الكاتب على تسجيل التفصيلات والوقائع الدقيقة والحوار النقدي والتحليلي الذي يتجاوز أحياناً مقتضيات العمل الروائي، فإن عبد السلام العجيلي لامس شاعرية النص في كثير من المقاطع، إضافة إلى قدرته اللغوية على توضيح الأفكار ودقة التعبير وروعة الوصف، وهي دقة يفتقر إليها كثير من كتّاب الرواية الذين تسوقهم حمّى المشاعر المتدفقة، وتحول بينهم وبين تصوير مناحي الحياة بقلم هادئ رصين، وفكر نيّر، وثقافة واسعة تبرز من خلال الحوار.

وعمد الكاتب عبد السلام العجيلي إلى شد القارئ وتشويقه حين أرجأ العقدة إلى آخر الرواية، فلم يظهر النيات الخفية لعبد المجيد عمران، ورغبته في مغادرة البلاد والاقتران بسكرتيرته «هدى» إلا في النهاية، وإن كان ذلك قد ابتعد عن المنطق، فبدت أقرب إلى السيرة الشخصية تتوالى فصولها على صورة لوحات متقطعة دون تجلية لمواقف الشخصيات التي يربطها خيط خفي بحياة عبد المجيد بك عمران وتطلعاته وأحلامه الاقتصادية.

وإذا كانت رواية «قلوب على الأسلاك» تصويراً لشريحة من الحياة بصدق وأمانة، فإن عبد السلام العجيلي يظل من أبرز الأقلام الأدبية في الوطن العربي قدرة على تحقيق هذا الهدف، وذلك قبل أن تنحرف الرواية عن مسيرتها الواقعية وتسقط في بؤرة التحليل النفسي أو تصوير الاغتراب الفردي والتمرد الرومانسي للكاتب، ذلك أن هذا التحوّل قد حصر الرواية ضمن الذات والهواجس الداخلية، فبدت معزولة عن الحياة الاجتماعية، فقيرة في تجلياتها ورسم صورة صادقة للواقع الخارجي... وهي خسارة لا تعوّض، بعد أن كانت الرواية معادلاً موضوعياً للواقع الخارجي، أمست الكتابة هرباً من الواقع ورفضاً له، غير أن حلم الهرب أصبح هو الذي يحتلّ الصدارة في العمل الروائي على حساب تجليه الواقع، ومن هنا فإن بطل رواية «العجيلي» لم يصف هربه ولم يثقل على القارئ تضخيم آلامه واغترابه إلا في سطور قليلة وردت في ختام الرواية، ليكون شاهداً واعياً وأميناً على رسم الحياة، ربما لأنه لم يكن ملتزماً، لكنه كان مرهف الحس خلال تصوير أدق خلجات نفسه التي تستجيب للتغيير، فتنساق له حيناً وتعارضه حيناً آخر، لكن بوعي الإنسان الذي لم تخرجه الأحداث عن طوره، ولم تدفعه إلى الوساوس والهلوسة وداء العصر، فبدت اعترافاته وثيقة هامة تلامس التاريخ وتستنطق الشعر، وتجمع بين أهواء القلب ونوازع العقل الإنساني، والأديب المبدع هو الذي ينفذ إلى عقولنا وقلوبنا، وليس ذاك الذي يستدر منا الدموع دون أن نعلم مواجعه بجلاء ووضوح.

* * *

التوافق والتشابه بين أبطال الروايتين

نلاحظ التشابه واضحاً بين روايتي عبد السلام العجيلي:

١ ـ باسمة بين الدموع.

٢ ـ قلوب على الأسلاك.

وهو تشابه يصل إلى حد التطابق في الحبكة والتصميم وطريقة السرد والشخصيات، فنلمس أن باسمة في رواية «باسمة بين الدموع» تطابق شخصيتها شخصية «هدى» في «قلوب على الأسلاك» كلتاهما خابتا في الزواج، وتعلقت الأولى بسليمان عطا الله كما تعلقت الثانية بطارق عمران، وكلتاهما آمنتا بالحب وجذبتهما شخصية المحبوب الجسدية، وهيام في الرواية الأولى تطابق ماجدة في الرواية الثانية فكلتاهما تمثلان جيل الستينيات المراهقات المتعلقات بالمثل، والمشبعات بالأفكار التحررية، وسعاد زوجة المحامي في الرواية الأولى تكاد تكون صورة عن نهاد فكلتاهما لا تحبان زوجيهما وتطمعان بعلاقة حب تجدد حياتهما.

وفي الروايتين نجد شخصية راقصة الملاهي التي غالباً ما تكون ملجأ للشبان الذين سدت في وجوههم فرص الحب أو خابت آمالهم في المرأة، والبطلان في الروايتين [سليمان عطا الله وطارق عمران] يتماثلان باهتماماتهما

السياسية ونشأتهما الريفية وتطلعهما إلى علاقات غرامية لا تفرق بين الحب والجنس، إذ تمتزج واقعية الكاتب عبد السلام العجيلي في رواية «باسمة بين الدموع» بنزعة مثالية تقربها من الروايات الرومانسية، وترتفع فيها صورة المرأة المحبوبة من خلال شخصية «باسمة» إلى طموح مثالي في الحب يغالب دواعي الجسد، لكنه أخيراً يستسلم إلى الواقع، وتتغلب الواقعية على المثالية في نفس باسمة تحت تأثير الدوافع الجسدية، وهو انتصار يعززه سلوك الرجل الشرقي ممثلاً بشخصية سليمان عطا الله الذي يتمتع بنزعة حسّية في علاقته بالمرأة، ولا يؤمن بمثالية الحب، تحت تأثير أفكار وقناعات حملها من بيئته الريفية، فهو يعتقد في أعماقه أن الحب الصافي لا يوجد في مجتمع مدني تجاوز عادات القرية وتقاليدها، وأباح للرجل والمرأة إقامة علاقات هي أقرب إلى الجنس، والطريف في الأمر أن هذه الأفكار ذاتها تتردد على لسان كل من بطلي الروايتين، ويدعمها سلوكهما غير المستقر في عالم المرأة، ولا ريب أن الكاتب «العجيلي» يرسخ في روايتيه مجموعة من الثوابت التي تتردد على لسان بطليها، وهي ثوابت استمدها من الواقع الذي أوحى له بما كتب، أو من شخصيته بالذات، فمن الملاحظ أن ثمة تشابهاً بين حياته الشخصية وسيرة أبطال روايتيه، فهو ريفي المنشأ أمضى جلّ حياته في دمشق، وهو أديب وسياسي وطبيب، وتلك الصفات تتسم بها أبطال روايتيه، ومنهم طارق عمران وسليمان عطا الله والدكتور الياس.

وفي الروايتين تحليل للواقع الاجتماعي والسياسي في سوريا خلال مرحلتين متتاليتين تقدمهما الروايتان، مرحلة الحكم الوطني ثم الوحدة بين سورية ومصر وما تلاها من الانفصال.

ولم يكن الدكتور عبد السلام العجيلي بمعزل عن تاريخ وطنه السياسي وحياته الاجتماعية، بل كان مشاركاً فعّالاً في الأحداث السياسية، ومنظّراً للفكر السياسي والاجتماعي في أدبه ودراساته، فليس من المستغرب أن نلمح في روايتيه انعكاساً واضحاً لتجاربه الذاتية وحياته الخاصة، لكنه استطاع أن يوزعها سلوكاً واعترافات بلسان الشخصيات حتى ليخيل إلى القارئ أن الحوارات التي أقامها بين سليمان عطا الله والدكتور الياس ليست إلا حوارات داخلية كانت تدور في نفسه وتقلقه.

وكما تعكس الروايتان أفكار الكاتب العجيلي ورؤاه، فإنهما تمثلان بوضوح التطور النفسي والفكري الذي طرأ على شخصيته في مرحلتين تمتدان في الزمن إلى أكثر من عقدين، إذ بدا في مرحلة شبابه أكثر اهتماماً بقضية الحب وصلته بالجنس في رواية «باسمة بين الدموع» في حين تنامى اهتمامه بصورة واضحة بالقضايا الاجتماعية والسياسية في رواية «قلوب على الأسلاك»، فنلاحظ أن عالم الرجل والمرأة في روايته الثانية لم يكن إلا إطاراً يتوصل به إلى معالجة شؤون المجتمع، وفي حين بدا أن الحب في روايته الأولى استأثر البطل الأول، كما ضمن أسلوب الرسائل الغرامية العديدة في روايته الثانية بعد أن احتلّ حيّزاً كبيراً من روايته الأولى.

والمضمون في الروايتين يعالج شخصية الريفي المحروم من الجنس والذي يلتمس مداواة كبته في التحلل من القيم والعادات والقيود الريفية المفروضة عليه، فهو يجد في المدينة ضالته المنشودة دون أن يتمسك بمثل الحبّ والترفع التي يعدّها قيداً ريفياً يخنقه، غير أن البطل العاشق الريفي لدى الكاتب عبد السلام العجيلي هو شخصية مرغوبة لدى نساء المدن،

فهو المعشوق لا العاشق، ونساء المدينة يتهافتن عليه تهافت الفراش حول السراج، يشفع له جمال جسده وقوته البدنية، ويسهل مغامراته نزعة التحرر التي أطلقت عقال المرأة في المدن، وأخرجتها عن حفاظها على التقاليد، وهي وجهة نظر لا تخلو من مبالغة، فالقيود المفروضة على المرأة الدمشقية في البيئات المحافظة هي أقسى من مثيلاتها لدى المرأة الريفية، لكن الكاتب «العجيلي» يختار نساء المدينة من طبقة البورجوازية الصغيرة ومن السيدات المتعلمات فقد تحررت تلك الفئات من ربقة التقاليد، ومع ذلك فإن بنات هذه الطبقة يحتفظن بسبب وعيهن بقيم ومثل سامية.

وفي رواية «باسمة بين الدموع» تحليل للواقع الاجتماعي والسياسي في مرحلة الحكم الوطني، وما تكشفت عنه هذه المرحلة من فساد ورشوة واستغلال ومعاناة الفلاحين والطبقات الفقيرة، وما شهدته تلك المرحلة من صراع بين الساسة المخضرمين التقليديين من رجال الإقطاع والعشائر وجيل الشباب الذي يتطلع للتغيير، لكنه جيل تعوزه الصلابة في المبادئ، ويسوده التناقض بين المبادئ والسلوك وكما يبرز جلياً في تصرفات قادته وقد عبّر الدكتور الياس عن ذلك بقوله لسليمان: هل تعتقد أن أفراد حزبك الذين يرون فيك وفي غيرك من زعماء الحزب أنصاف آلهة يظلون على إيمانهم بكم لو عرفوكم حق المعرفة؟...

على أن أبرز ما يضعف التحليل السياسي في الروايتين غياب دور الاستعمار الأجنبي وتأثيره في الحياة السياسية والاجتماعية حتى ليبدو الوطن في النصين ساحة متحررة من كل ضغط أجنبي، ويبدو أبناؤه المتصارعون على قيادته سادة أنفسهم. وإن كثيراً من أوجه الصراع ومنظماته

القيادية والحزبية لم تكن تملك إرادتها وهي تنفّذ مشيئة الطامعين بخيرات الوطن واحتيازه... بل تبدو اللعبة السياسية والاجتماعية التي يتطاحن حولها قادة التنظيمات لعبة زائفة حين ندرك أن الأجنبي يسيّرها في كثير من الأحيان من الخارج بعملائه ومشاريعه، ولا يدرك المخدوعون بالسياسة هذه الحقيقة إلا بعد أن تتكشف الحقائق ويسفر الدخيل عن وجهه خلال الانقلابات وسقوط الحكومات في المرحلة من الصراع على الوطن كما جسّدها الكتّاب الذين حللوا الواقع السياسي لتلك المرحلة، بينما لم تُشر الروايتان إلى هذه الحقيقة إلا لماماً وبصورة عابرة.

أدب الرحلة عند عبد السلام العجيلي

يتناول الكاتب الدكتور عبد السلام العجيلي، في رواية بعنوان «أجملهن(*)» الحياة المعاصرة في أوروبا، وينقلنا بأحداث الرواية إلى «النمسا» إذ يقارن أعراف الشرق العربي بتقاليد الغرب الأوربي... ويقوم بتصويرها وتجسيدها بواقعية وتحليل وتجلية جوانبها من خلال أثرها في السلوك الإنساني للشخصيات الواردة في الرواية.

لم يختر «العجيلي» بيئة «النمسا» مقابل بيئة مدينته «الرقة» مسرحاً لأحداث روايته، ليثير فضول القارئ العربي لكشف عالم جديد يجهله، وإنما كان هدفه من خلال الرواية أن يُقيم موازنة بين عالمين متقابلين هما الشرق والغرب.

ولاشك أن محاولات عديدة سبقته محاولة اختراق هذين العالمين وإقامة مقارنة بينهما، منذ «عصفور من الشرق» لتوفيق الحكيم، ورواية «زينب» لمحمد حسنين هيكل، إلا أن «العجيلي» لم يرَ في الفروق القائمة بين هذين العالمين سبيلاً إلى استحالة اللقاء بينهما، بل على نقيض ذلك، برهن

(*) أجملهن... رواية للدكتور عبد السلام العجيلي.. منشورات دار الريس في (١٩٥) صفحة... من القطع المتوسط.

من وقائع الرواية أن الإنسان في جوهره واحد، مهما اختلفت القيم والأعراف، فثمة قدر إنساني كبير يوحّد عالمنا الذي يبدو لنا منقسماً ومتبايناً في قيمه؛ إذ يلتقي على صعيد الجنس والحب، ويتوحد الإنسان الشرقي بالإنسان الغربي، فبطل الرواية «سعيد» محام ناجح من الشمال السوري، يعشق السفر ويهوى الرحلات، وسبق أن أنهى اختصاصه في بلاد الغرب، ووقف على أخلاق الغربيين وقيمهم خاصة في ما يتصل بمسألة الجنس.

يقرر «سعيد» زيارة النمسا، وهو لايجيد من اللغة الألمانية إلا بضع كلمات، لكنه يُحسن الإنكليزية.

ويقوده السفر إلى «فيينا» فيبادر بعد وصوله إلى البحث عن صديقة تخفف عنه عناء الغربة، وتعرّفه المدينة، حيث يبدو أن الجنس أولاً هو مثار اهتمامه، وهو أسهل منالاً في الغرب، فيلتقي فتاة تدعى «سوزان» ويدعوها بكل جرأة إلى مرافقته، فتواعده إلى الغد، وفي رحلته إلى «سان ستيفان كيرخة» تعرّضت له فتاة أخرى، فطلب منها مرافقته، فتمهله إلى الغد أيضاً، إلا أنه يرجوها أن تساعده في العثور على فندق ملائم، فتقوده إلى أحد الفنادق، وترافقه إلى غرفته.. كانت «سوزان» وهذا اسمها، أجمل من اعترضهن، ويتجدد بينهما اللقاء فتقوده إلى آثار المدينة ومعالمها البارزة لاسيما متحفاتها الفنية، ويتعمق بينهما الحب والغرام، فتدعوه إلى بيتها وتعرفّه بأمها، ويدرك خلال اللقاء أن «سوزان» حدثت أمها عن هذا الشاب الشرقي، وأنها راغبة في إقامة علاقة معه، فلا تجد الأم في ذلك ما يدعو إلى الاعتراض... وتتوطد العلاقة بين شاب شرقي وفتاة غربية، وينشأ بينهما حب عاصف هو مزيج من العشق والجنس، ويزوران معاً معبداً أثرياً،

فيذكر لها «سعيد» أ، المعبد ذكره براهبة شرقية، عرفها في بلده... كانت الراهبة سورية الأصل فرنسية الجنسية... فيدفع الفضول «سوزان» إلى سؤاله عن العلاقة بينهما، فيفهمها أنها كانت علاقة احترام وصداقة، لكنها تلحّ عليه للتوصل إلى معرفة أوسع عن هذه الراهبة التي يذكرها بأسى... فيعلمها أنه عرفها عن طريق صديق فرنسي من أساتذة الجامعة... أرسلها إليه مزوّدة بتوصية منه لمساعدتها في بحث اجتماعي تُجريه في إحدى قرى الشمال السوري، كانت الراهبة «ندى» مثالاً للذكاء والوداعة، فيرسلها بدوره إلى صديق له في البلدة نفسها هو الطبيب «عبد العزيز» وكان شاعراً ومثقفاً، ويروي «سعيد» لسوزان ما عانت الراهبة السورية في مجتمع الريف بسبب سفورها وظهورها بين الرجال، إذ أغاظ ذلك الفئات المحافظة في البلدة، فراحوا يرسلون الإنذار تلو الإنذار إلى صديقها سعيد وعبد العزيز ثم إليها لمغادرة البلدة، ويحاول الصديقان التسرية عن الراهبة، والحدّ من الإساءة التي وجهت إليها، يخبرها سعيد أن الراهبة تعرضت لحادثة دهس على الحدود السورية اللبنانية بعد زيارة لها لفرنسا، وتتساءل «سوزان» هل كان ثمة علاقة حب بين عبد العزيز والراهبة؟!.. بعد أن راودها الشك في أن تلك الصلة بينهما كانت أكثر من علاقة صداقة وخدمة. فيقرأ لها سعيد قصيدة لعبد العزيز أرسلها إليه، يشتمّ منها أنه كان يحبّها، وكان عبد العزيز يدرك أن حبه تعترضه السدود، ولذلك يشبّه قلب الراهبة بالصخر، فقد انتقلت روح الفتاة إلى السماء، وتتبين الحقيقة من رسالة وجهتها الراهبة إلى عبد العزيز، تعترف فيها أنها تبادله المشاعر نفسها، لكن ثوبها الرهباني يحول دون ذلك الحب البشري.

وتترسخ العلاقة بين «سعيد» ابن سورية وسوزان ابنة النمسا، ويحين موعد سفر «سعيد» وعودته إلى بلده، فتودعه بالدموع وهي تدرك أن علاقتهما ستؤول إلى ما آلت إليه علاقة الراهبة بعبد العزيز فلا أمل أن تسافر معه إلى بلده، أو يبقى هو في النمسا.. وبعد شهور يتلقى منها رسالة جوابية على رسالة كتبها إليها ضمّنها حبه ورغبته في استقدامها والزواج بها، إلا أنها تعلمه أنها في ساعات يأسها بعد رحيله، اختارت أن تصبح راهبة مثل «ندى» الراهبة السورية، طالبة منه أن ينساها، وإن كانت ذكراه ستظل ماثلة حتى الموت.

* * *

يرسم الكاتب «عبد السلام العجيلي» صورة واضحة للمجتمع الغربي وعقليته السائدة عن علاقة المرأة بالرجل، فهي كما تتجلى في النماذج التي رسمها أن المرأة الغربية سيدة نفسها، تملك القرار في اختيار من تعشق، بصرف النظر عن الدين أو الهوية، ويبرز الأهل في الغرب من صورة الأم في الرواية متفهمين لحقيقة العلاقات الجنسية بين الأبناء، فهم يحترمون قرار الفتاة اختيار مَنْ تعاشر، ولا تتدخل البيئة والأسرة في هذه العلاقة، هذه النظرة المتحررة في الغرب جاءت ثمرة تجارب طويلة مرّ بها المجتمع الغربي، رسختها الثورات الاجتماعية والتحولات الاقتصادية.

كما تتجلى العقلية الشرقية المحافظة من خلال شخصيات الرواية، فالكاتب «العجيلي» يرسم نموذجين للإنسان الشرقي، النموذج المثقف الذي درس في بلاد الغرب، وهو متسامح، ينظر إلى المرأة كمخلوقٍ مساوٍ للرجل، ولها الحقوق التي يملكها من حيث حرية الاختيار والتصرف. ولا

يهتم بالفروق الاجتماعية والدينية والإنسانية.. إنه جيل سعيد وعبد العزيز أمام الفريق المحافظ الذي يمثله أهل الريف والضيعة الذين يستنكرون أن تخالط تلك المرأة الرجال لإتمام بحثها العلمي، وهو متشكك وقاسٍ في تعامله، لا يتورع عن مضايقة الراهبة وتهديدها، وربما يكون رموز الكاتب وراء حادثة دعسها.

إن شخصية المثقف العربي التي يجلوها الكاتب «العجيلي» لم تستقر بعد، ولم تتجاوز رواسب البيئة المحافظة، فهي شخصية متعطشة للجنس والمرأة بحكم الكبت الاجتماعي، ولذلك كان يشغل «سعيد» حين زيارته «النمسا» البحث عن امرأة، وكان يظهر عليه الضيق كلما أغرقته «سوزان» بشرحها المستفيض عن آثار بلدها ومعالمه، لأن ذهنه منصرف إلى الوصول إليها...

ويطرح الكاتب «العجيلي» مسألة الإرهاب الفكري والاجتماعي التي تفرضها رقابة الطبقة المحافظة على الإنسان في بلده، وهو إرهاب يمليه التعصب والمحافظة، عند تصور مايجب أن تكون عليه الحياة والسلوك الإنساني، فكل خروج عن الأعراف والتقاليد، ولو كان بريئاً يعرض صاحبه للاضطهاد والنبذ والتهديد.

إن ما طرحه الكاتب «العجيلي» من وقائع وحقائق ونماذج إنسانية ورؤية فكرية تأملية.. لا يجوز تعميمه ففي المجتمع الغربي محافظون وفيه أسر محافظة لا تقل حفاظاً في عقليتها عن بعض الأسر في الشرق العربي، وإن بعض المثقفين الذين درسوا في الغرب لم يزدهم اطلاعهم واحتكاكهم بالمجتمع الغربي إلا تزمتاً وحفاظاً، ويريد «العجيلي» أن يقول: إن الحب يتخطى كل العوائق، وأنه سبيل إلى توحيد الناس مهما تباينت قيمهم. فهو يتسلل إلى قلب المتبتل والراهبة المتعبدة، فيهز الكيان والجوارح.

ويؤكد الكاتب أن الإنسان إذ يتجرد من كل المواصفات البشرية، يرفعه الحب إلى آفاق السعادة، فهو حاجة إنسانية جديرة بالاحترام، أما إذا خاب الحب فذلك يعني أن يعتزل المحب مباهج الحياة تعبيراً عن إخفاقه.

في محراب الحب قد يمارس العاشق لوناً من الرفض والرهبانية، يعبر عنهما بصور متعددة كالإضراب عن الزواج... ولعل قصص الحب العذري التي يحفل بها الأدب العربي تعبّر عن هذا النزوع إلى تقديس الحب والإخلاص له.

ويبدو أن «العجيلي» في روايته «أجملهن» أميناً على شروط الرواية الفنية التي تمّ العبث بها في موجة الحداثة ومابعدها، فهو يحرص على تلك الشروط ويحترمها ويفيها حقها من مستلزمات الفن الروائي: منها الوصف الماتع للعالم المحيط الذي تدور فيه الأحداث، والربط المحكم بين البيئة المكانية والزمانية وموضوع الرواية... حيث توفر البيئة المكانية خلفية ثقافية وتاريخية يمتزج فيها تاريخ الحب بتاريخ الأعراف، كما تترجمه الآثار والأوابد، وحيث تغدو «مأساة مايرلنج» التي أسفرت عن انتحار ولي عهد النمسا بسبب حبه الخائب جزءاً من وقائع الرواية يغنيها ويخدمها، فالإمبراطور النمساوي المغرور والمتزمت هو واحد من الذين أفضى تزمتهم إلى انتحار ولده لإصراره على رفض الفتاة التي اختارها من عامة الشعب.

كما حرص «العجيلي» على إظهار عراقة النمسا إذ تتجلى بما يحتفظ به من آثار ومعابد وصوامع تمكن بحكم تطوره أن يتجاوز ذلك التزمت ويرتقي بالمرأة إلى المرتبة التي تمثلها بطلة الرواية «سوزان» التي اختارت بنفسها حبها للغريب الشرقي، واختارت التضحية بالمستقبل إكراماً للحب وبملء إرادتها.

* * *

إذا تجاوزنا الوصف الخارجي للبيئة ـ أعجبنا من الرواية ذلك الحوار الحي والمعبّر لدى «العجيلي» الذي يعكس ارتقاء وعيه وثقافته وتجربته... فهو فنان في إدارة الحوار على دعامتين من العقل والشعور إذ تبرز الواقعية لديه بمظهريها الفكري والعاطفي وهما جوهر بناء الإنسان، فالإنسان عنده ليس عقلاً أو مجموعة قيم عقلانية فحسب، إنه أيضاً إنسان الشعور والتواصل الإنساني الذي يتخطى الأعراف، ومن هذا المنطلق بدت الرواية مزيجاً من الواقعية والرومانسية، كما نلاحظ أن الكاتب لم يقصد أن يتخذ من العقلية الغربية مثلاً، ولم يتخذ من الإنسان الغربي قدوة في سلوكه وأعراف مجتمعه، بل كان يطمح إلى أن يلتمس صيغة يوفق فيها بين محافظة الشرقي والصراحة التي تمليها الأعراف، والتحرر المفرط في الغرب الذي يهدد الأسرة والمجتمع بالانحلال، وتتجلى هذه الصيغة في سلوك «سوزان» المؤمنة في أعماقها، والتي يتحدر إليها إيمانها من التربية الاجتماعية والبيئة المحيطة بها، لكنها على الصعيد الإنساني صريحة مع نفسها ومع من تحب، وهي سيدة قرارها يمليه إحساسها، فبعد تجربة حبها الخائب تؤثر أن تنهي حياتها الدنيوية لتتفرغ للعبادة، وموقفها هذا ينطبق في جوهره على مواقف العذريين في المجتمع الشرقي الذين رفضوا الحياة حين خاب أملهم بالحب.

والرواية في جوهرها حوار حول الحضارات، يطرح نفسه في هذه المرحلة من حياتنا، حين تميل الإنسانية إلى التماس صيغ جديدة للتعايش بحكم ظروف توحُّدها التي أملتها التقنية والحضارة، فهي دعوة إلى تحرير الإنسان، وخاصة المرأة، من التعصب والسلطوية. ومنح الإنسان فسحة ليكون سيد ذاته لا عبداً مسيراً بالتقاليد والأعراف.

فلسطين في قصص عبد السلام العجيلي

الأديب الدكتور عبد السلام العجيلي علم من أعلام الأدب النثري، ورائد معروف من رواد القصة بأنواعه المختلفة، وهو أكثر أدباء القصة التصاقاً بالواقع، واستناداً إلى البيئة في اختيار موضوعات قصصه، حتى لتكاد تكون شرائح حقيقية من حياته الخاصة ومشاهداته وانطباعاته، وهو ينطلق من إيمانه بأن القصة تستمد مصداقيتها من ارتباطها بحياة الأديب وتجاربه، فالأديب ليس محتاجاً إلى الخيال ليستعير منه مادة أعماله، وهو ليس محتاجاً إلى تمويه الواقع بضروب من التحوير والتحريف والتماهي مادامت الحياة نفسها مجموعة مواقف إنسانية ليستطيع الكاتب أن يمتح منها ما يحرّك وجدانه، والشخصيات الإنسانية الحيّة هي أكثر شخصيات القصة صدقاً إذا أحسن الكاتب اختيارها، وسلّط عليها عدسته الفاحصة لتجسيد سلوكها في إطار المجتمع، واستخلص بقلمه دوافعها ومعنى تصرفاتها، ومسوّغات وجودها.

هكذا بدأ «عبد السلام العجيلي» في كل آثاره وأعماله القصصية خاصة، ألصق الأدباء بحياة الشعب وتطلعاته وآماله وآلامه، حتى إن بعض أعماله ترقى إلى مستوى الواقعية التصويرية الأمينة، إلا أن عظمة «العجيلي» تتجلى في قدرته على اختيار بؤرة التنوير وبراعته في تسليط الضوء على شخصياته من الزاوية التي يجب أن يقدّمها للناس، وإن المرء ليستغرب حقاً

أن ينهج هذا الأديب المتميّز هذا النهج الواقعي الموضوعي منذ بداياته، يوم كانت التيارات الرومانسية تحتل الساحة الأدبية، وتقدم لأبناء الشعب العربي شحنات من الأدب العاطفي الذي يحرّك المشاعر، ويستثير الأحزان ويفتعل البكاء، ويوم كانت روايات المنفلوطي وخواطر الرافعي هي الغذاء الأدبي الرائج للإنسان العربي.

صحيح أن الواقعية التمست طريقها من خلال قصص محمود تيمور ويوسف إدريس، لكنها واقعية كانت تعتمد في كثير من موضوعاتها وشخصيات قصصها على خيال الأديب أكثر مما ترتبط ارتباطاً عضوياً بتجاربه الحياتية المباشرة، كانت واقعية اجتماعية تعالج شؤون المجتمع أكثر مما تعنى بمصير الأمة وما ينتظرها.

وينطبق هذا الاتجاه لدى عبد السلام العجيلي على محاولاته الأدبية في موضوع فلسطين، فهو أديب متميز لم يكتب عن فلسطين وإنما كتب عن تجربته الفلسطينية، فلم يكن أدبه متخيلاً، وإنما كان صورة أمينة لحياته الذاتية يوم شارك في العمليات العسكرية متطوعاً في جيش الإنقاذ عام ١٩٤٨م، وما تبع ذلك من نشاطات مارسها لها صلة بالقضية الفلسطينية مارس العمل السياسي، فكان عضواً في المجلس النيابي السوري.. بالإضافة إلى مشاركته في نشاطات أخرى تتعلق بدعم القضية الوطنية، وعلى الرغم من وعيه المبكر ونزعته الموضوعية العقلانية في كتاباته الأولى، إلا أنه يرى في هذه البواكير ردود فعل ساذجة، واستجابة سريعة لنزوات الشباب وضرباً من «لغة العنفوان والثقة بالنفس والإيمان بقدرة الحق على غلبة الباطل في جولات قليلة».

بدأ اهتمام عبد السلام العجيلي بالقضية الفلسطينية وهو فتى يافع على مقاعد الدراسة، ويذكر أنه ذهب إلى دمشق دون علم أسرته، واتصل بالمشرف على حركة التطوع، وطلب منه أن يلحقه بالثورة الفلسطينية في عام ١٩٣٥، إلا أن المشرف رفض تلبية رغبته لصغر سنه، ثم تحقق حلمه بعد أن شبّ عن الطوق فلم يثنه عمله السياسي نائباً عن محافظة الرقة عن الالتحاق بجيش الإنقاذ، غير أن تجربته النضالية خيّبت أمله وحدّتْ من اندفاعه حين أدرك حجم المؤامرة وتقصير القادة، دون أن يسقط في براثن اليأس، فنذر قلمه للتوعية، وحدّد رسالته الأدبية «بالتنديد بعوامل الضعف التي حالت وتحول دون وضع إمكانات الأمة حيث يجب أن توضع، وكله أمل في أن يتغلب الفكر النيّر في آخر المطاف ويدحر الباطل».

وخلال زمن النكبة كتب مقالاً بعنوان «أرض فلسطين ميداننا الوحيد» أشار إلى أن مايجري في الميدان هو الحقيقة... ويرى أن «نور رصاصة واحدة أكشف للحقيقة من كافة أنوار حلقات السياسة ومجالسها مجتمعة»، ويفضح دور بريطانيا في تمكين اليهود من امتلاك أرض فلسطين، وإبادة سكانها الأصليين من العرب، ويعجب بشجاعة الملتحقين بجيش الإنقاذ من أقطار الوطن العربي على ضعف تسلحهم، غير أن شجاعتهم عجزت أمام أسلحة الإنكليز واليهود الحديثة، فكانت القوة للسلاح ولو كان بيد الجبان، ويحذّر الشعب العربي من تصديق ما تكتبه الصحف عن قوة جيش الإنقاذ، واتساع حركة التطوع، فالمال الذي يملكه الصهاينة يهيئ لهم سبل الغلبة، كما تهيئ لهم أساليبهم في جمع المرتزقة للقتال.

ولعلّ قصة «بريد معاد» استلهمها من معارضة أهله له يوم عزم على العمل الفدائي إبان ثورة ١٩٣٥م فبطلها يذهب للتطوع في جيش الإنقاذ ويوجّه رسالة إلى والده المحامي من مرصده في قرية «سيلان» ينتقد فيها تربيته، فقد كان الأب القاسي آمراً أو زاجراً لولده، ولم يقم جسوراً من الحب بينه وبين ولده، ولم يكن يهمه إلا مجده الذاتي ونوازعه المادية، وتصل الرسالة إلى الأب بعد استشهاد ولده بزمن فتحدث تحولاً كبيراً في حياته وسلوكه.

كتب «العجيلي» هذه القصة في عام ١٩٥٣م ولم يكن مذهبه الفني قد اتضح بعد. فواقعيته فيها واقعية متخيّلة، وهي مشحونة بالمشاعر الرومانسية، لكنها مع ذلك تمثل صراع جيلين متناقضين، الآباء الذين أهملوا واجبهم القومي والتفتوا إلى المكاسب المادية ومتع الحياة، والأبناء الذين يتطلعون إلى القيم السامية، وقد وضعوا لهم أهدافاً قومية ووطنية نبيلة تتجاوز طموح الآباء في عيش رخيص، لكن جيل الشباب يبدو مندفعاً يقدّم دمه رخيصاً على مذبح فلسطين دون أن يدرك أن جهوده لن تثمر، ومع أن الكاتب يعي هذه الحقيقة إلا أنه لا يجد طريقاً للخلاص سوى التضحية والفداء وتحريض جيله على المقاومة، إذ لا خلاص مع اليأس.

ويغتني وعي الكاتب، وتترسخ واقعيته في آثاره الأدبية.. فكتب رائعته «بنادق من لواء الجليل» وهي تجسد واقع العمل الفدائي فوق أرض فلسطين كما خبره وعرف مقاتليه، ولا يتورّع عن ذكر سلبيات هذا الواقع ومنغصاته، فلم يكن أولئك الذين تطوعوا للقتال أبطالاً كلهم. كان بعضهم يرتعش لسماع ذكر العدو كأبي سليم.. ولم يكن طعام المقاتل مرضياً، ولا السلاح العتيق أهلاً للمعركة، ومع ذلك كله فإن الإنسان

الفلسطيني والعربي المشارك في المعركة استطاع بشجاعته وحدها أن يقاتل بعناد، بسلاح بالٍ ينفجر في أكف المقاتلين كباردوة المقاتل البدوي الشجاع «حسون» وبندقية الملازم محمد في موقعة «دلاته» التي صمدت في وجه رشاشات العدو المتطورة وأصابت هدفها، قبل أن تحصد نيران العدو الكثيفة البطل الملازم محمد أ حد أبناء إحدى القرى السورية في شمال حلب.

إن هؤلاء الشجعان قاتلوا وصمدوا ودافعوا عن أرضهم وماتوا فوق بطاح فلسطين على ضعف وسائلهم، وهم في ذلك أفضل من أولئك الخانعين الجبناء الذين آثروا حياة رخيصة على ميتة شريفة.

لم يكتب «عبد السلام العجيلي» متفجعاً على ما يحلّ بفلسطين من أبنائها من نكبات، فقد غلّب في أدبه التنوير على التحريض، إذ لا فائدة من التلاعب بالمشاعر والإفراط في اختلاق البطولات وتمجيد النتائج مادامت الوقائع الحيّة ستزري بكل الذي ينسجه الأدباء من بنات خيالهم.

كان عبد السلام العجيلي يطمح أن يرقى بحركة المقاومة إلى آفاق من الوعي، وبالأمة أن تدرك عيوبها لتتلافاها، لتتجنب بالوعي سوق أبنائها للذبح دون جدوى، وهو في قصته يهيب بأبناء الأمة أن تستفيد من المقاومة الشعبية، ويعلّم جيل الشباب ألا يستهين بخبرة الآباء وشجاعتهم، فإلى جانب الحرب النظامية التي كانت تدور فوق رحاب فلسطين ويمارسها شبان أغرار، كان «العجيلي» يطمح أن تستغل القوى الشعبية في تنظيماتها الاجتماعية المختلفة عشائرية كانت أم تجمعات تنطوي تحت زعامات تقليدية، لأنها أقدر على استجرار الجماهير للكفاح، وكأنه يسترجع تنظيم الجيش العربي في صدر الإسلام، وعهد بني أمية يوم كانت فرق الجيش

تخضع لتقسيم قبلي من ميزاته أنه يربط بين المقاتلين بأواصر من اللحم والدم، ويفوت على الجبان فرصة جبنه لأنه معروف من أفراد قبيلته، فلابدّ من الثبات في المعركة.

هكذا بدا الوضع العسكري النظامي مرتبكاً أمام قوة العدو ودباباته المندفعة إلى قرية ذلك الزعيم العشائري في منطقته، ذلك البدوي الذي رأى فيه الكاتب بعضاً من أهله، وفارساً حنكته تجارب الأيام، وبطلاً يقتحم دبابات العدو فوق فرسه وبيده سيفه الأعجف وهو يبرّد خوف المقاتلين الشبان قائلاً:

ـ الدبابات ماهي إلا حدائد...؟؟ نحن رجال يابني وهم رجال...

ولشد ما آلم الكاتب أن يلقى ذلك البطل الذي عرفه فوق رحاب فلسطين بعد سنوات في مبنى الأركان العامة وهو يطالب بالإفراج عن البنادق الست التي صودرت منه دون أن يعرف صاحب الأمر شيئاً عن ماضيه البطولي...!!

ويعلمنا «عبد السلام العجيلي» أن نقدر أبطالنا، ونستفيد من طاقات شعبنا مهما كان لونها، وقد صدق حدسه في ذلك، فقد بدت سورية يوم ركزت جهدها على المقاومة الشعبية عام ١٩٥٨ قلعة صامدة لا تقتحم، وتحوّل كل رجل إلى مقاتل، وكل بيت إلى خندق.

وبواقعية أمينة يستعرض الكاتب صوراً من تضحيات أبناء الشعب العربي، ولكنه يعلّم أكثر مما يمجّد، لأنه يدرك أن الأدب سلاح للتنوير، وطريق إلى الانتقال من الغريزة إلى التصرف الواعي... فهو يعلمنا في قصة

«كفن حمود» أن نحترم شهداءنا، ولا نتخلى عنهم أشلاء في ساحة المعركة، بل نكرمهم وندفنهم وفاءً لهم، وتقديراً لمشاعر أمهاتهم اللواتي يجدن عزاءً في أن يحتوي الوطن أبناءه ولو بضريح صغير فوق الأرض التي ماتوا من أجلها.

ويرى الكاتب في قصة «نبوءات الشيخ سلمان» أن قضية فلسطين ليست معركة تحرير فحسب، إنها معركة تطهير، فالشيخ سلمان يتنبأ أن مصير فلسطين لن يتقرر ببنادق هؤلاء الشبان المندفعين إلى المعركة: «بعدكم سيأتي أناس هم دونكم، أناس لم يخوضوا الحرب فيفشلوا فيها، إنهم دونكم في العمل، لكنهم مثلكم في حب القوة والسلطان وفوقكم في الغرور، وهؤلاء سيموتون أيضاً، من لم يمت بجسمه فسيموت بروحه، ويجيء الطيبون في البدء ويذهبون، ثم الأقل طيبة، ثم يأتي الخبثاء.... الذين يبيعون أرضهم وملتهم ويتظاهرون أنهم يضحون في سبيل الأرض والملّة، ثم يأتي الخونة الكاذبون.... ويأتي من دمك ولحمك مَنْ يتنصّل من فلسطين... وبعد هؤلاء يأتي مَنْ سيدفعون فوق الأرض ثمناً لخلاصهم منها ومن أهلها...!!».

أليست هذه النبوءة التي كتبها عبد السلام العجيلي في عام ١٩٦٥ استشرافاً لما نشهده اليوم من تصفية القضية الفلسطينية، حيث يتبارى الآن هؤلاء الذين «يدفعون فوق الأرض ثمناً لخلاصهم منها ومن أهلها...!!».

قد نجد في صراحة «العجيلي» ما يجرح مشاعرنا، وقد ألفنا من أدبائنا، أن يصوروا لنا الجانب المشرق من حياة أمتنا ومجتمعنا، لكنها صراحة لخيرنا، وقديماً قالت العرب بما معناه «افرح للذي يلومك ويردعك لا لأقوال من يجاملك ويخدعك».

وبهذه الروح الموضوعية العلمية يكتب «العجيلي» قصصه ومقالاته.. وهي موضوعية جنّبته السقوط في درك التسطّح والخطابية، ووضعت نتاجه في مستوى الأدب الصادق الحيّ، ومن المتعذر أن نردّ موضوعيته تلك إلى عامل معين كأن تكون ثمرة دراسته الاختصاصية في مجال الطب، حيث يعتني ذلك العلم بتشريح الجسم ومتابعة علله وأمراضه، فنقيم علاقة مابين تشريح الجسد وتشريح المجتمع. وقد نردّ ذلك إلى تناقض صارخ بين البيئة التي نشأ فيها الكاتب وهي بيئة بدوية تقيم للأعراف والتقاليد وزناً ولا تحتكّم إلا للمشاعر بالقياس إلى بيئات مدنية أخرى ووسط علمي احتكّ بها، ومع أنه ظلّ أميناً لقيم مجتمعه ووسطه، ومعجباً بها، لكنه كان يطمح أن تتجاوز مجتمعاتنا بداوة الفكر التي ما زالت تكمن في صميمنا حتى ولو سكنا المدن، وتلقينا العلوم في الجامعات، فممارساتنا مازالت تخضع لأعراف اجتماعية موروثة، كما لا يريد «العجيلي» أن نتخلص من القيم الإيجابية الموروثة لكنه يطمح أن يقيم توازناً بين الموروث فينا ومتطلبات العصر من علم وموضوعية وسلوك حضاري، ووعي قومي سليم، فهو يصحّح في نتاجه الأدبي كثيراً من الأوهام التي كانت تسيطر على العقل العربي في الميدان السياسي آنذاك، ومنها أن الشجاعة وحدها لا تكفي لنيل النصر في المواجهة، فثمة أسلحة كثيرة يستغلها خصمنا من مال وعلم وإغراءات مختلفة ليكسب المعركة، وعلينا أن نتنبه لها، إن شجاعة «حسني، وعمر وحسن وفؤاد» من المقاتلين المغمورين الذين رسم ملامحهم في [لكل هؤلاء قصة]، والنصر الجزئي الذي حققه أبطال جيش الإنقاذ في معركة «الكابري»، والتصريحات النارية التي يطلقها الساسة العرب لا يمكن أن تكسب المعركة، ذلك أن المعركة التي خاضها العرب في عام ١٩٤٨ لم تُدعم بتعبئة وعي قومي يدعم تمسك العربي بأرضه، فإن الغارات التي شنتها الطائرات

المصرية على «تل أبيب» كانت أشد عنفاً من غارات الطائرات اليهودية على «صفد»، لكن الفارق أن اليهود تمسكوا بأرضهم ولم يغادروها في حين أن المواطنين الفلسطينيين سرعان ما غادروا قراهم ومدنهم متخلّين عنها للعدو، وفي ساحة القتال «كنا مهاجمين لكن بنفسية المدافع، تنقصنا روح المغامرة والإقدام، فقد كان عدد قتلى العدو يفوق في كل معركة عدد قتلانا، ولكن من يضحك أخيراً يضحك كثيراً، فقد ذهبوا بالأرض وذهبنا بالسلامة..».

وعلى صعيد المواجهة الفكرية، سخّر العدو الأدب والفن سلاحين له في إقناع الرأي العام الدولي، فأصدر الروايات ونشرها في العالم، والأفلام التي تؤيد قضيته، ورسم فنانون لوحات نالت بعضها شهرة عالمية تحت تأثير الدعاية، كيوميات آن فرانك والخروج التي اختلق كاتبها تصوير اضطهاد اليهود في أوروبا والعداء للسامية المفتعل في حين أننا نمنا عن حقنا ولم نُسمع العالم صوتنا.

ويرى عبد السلام العجيلي أن للنصر شروطاً موضوعية لا يتحقق إلا بها، وقد جمعها الشاعر المتنبي بقوله:

متى تجمع القلب الذكي صارماً
وآنفاً حميّاً تجتنبك المظالم

ومن أطرف مقارنات «العجيلي» في هذا المجال قوله: «إننا بثمن الورق والحبر والجهد المبذول والجهد الضائع المصروف في البلاد العربية وفي كل يوم بثمن هذا نستطيع أن نشتري دبابتين أو دبابة كل يوم، فعلى مدار عام واحد تتحصل لدينا قوة قادرة على أن تطحن عظام من يذيقنا المهانة بدل الكلام الذي لا يعدو أن يكون جعجعة بلا طحن...».

ويعلق الكاتب عبد السلام العجيلي آمالاً مستقبلية على وحدة العرب التي يرى أنها واقعة لا محالة وحتمية وإن كان الطريق إليها طويلاً وعسيراً. كما ينتقد قصورنا عن متابعة أهدافنا في معرض تعليقه على كتاب «بلادي» لآبا إيبان الصهيوني السياسي المعروف، وفيه يذكر حقيقة مُرّة مفادها أن العرب أسكرتهم انتصاراتهم في حرب تشرين بغض النظر عن نتائجها في حين تتصرف إسرائيل باتجاه معاكس محاولة أن تجعل من هزيمتها انتصاراً حقيقياً لها.

بهذا الفكر الواعي والناقد يعالج عبد السلام العجيلي في قصصه مسائل سياسية واقتصادية وعسكرية واجتماعية هامة تمسّ جوهر القضية الفلسطينية بروح الوطني الصادق والمفكر الواعي الذي لا ينساق مع غريزة القطيع، وإنما يضع بصراحة النقاط على الحروف ليُقيم جسوراً من الوعي في عقول أبناء أمته، وليضيف شمعة في ظلام تفكيرنا السياسي وممارساتنا القومية المبنية على ردود الفعل السريعة وضياع الوعي الفكري، وتلك هي الواقعية التي نحن في أحوج ما نكون إليها لتصحيح المسار واجتناء النتائج الظافرة.

وسيظل أدب «عبد السلام العجيلي» وفكره على دروب الوعي الفلسطيني معلماً بارزاً من معالم فكرنا القومي السليم، ومرجعاً للأمة العربية في مواجهة مؤامرات العدو، وما يُحاك من تخطيط خطير تمارسه أجهزة الامبريالية العالمية وحليفتها الصهيونية.

* * *

فهرس

الصفحة

تأملات عبد السلام العجيلي في الأدب والحياة ٥

عبد السلام العجيلي شاعر الليالي والنجوم ١٥

عبد السلام العجيلي. والقصة القصيرة..... ٢٧

الرواية في أدب عبد السلام العجيلي..... ٣٣

١ـ باسمة بين الدموع ٣٥

٢ ـ قلوب على الأسلاك ٤٣

التوافق والتشابه بين أبطال الروايتين ٥٣

أدب الرحلة عند عبد السلام العجيلي..... ٥٩

فلسطين في قصص عبد السلام العجيلي ٦٧

الفهرس ٧٧

عبد اللطيف الأرناؤوط

- من مواليد دمشق عام ١٩٣١م. ومن أصول ألبانية هاجرت أسرته بعد الحرب العالمية الأولى. واستقرت في بلاد الشام **[دمشق]**.
- أنهى دراساته في التربية والأدب العربي.
- عمل في التدريس وتسلّم إدارة مجلة **(المعلم العربي)** وبعدها نُدِبَ إلى اتحاد الكتاب العرب. أميناً لتحرير مجلتي **[**الموقف الأدبي – التراث العربي**]**.
- وسمحت له ثقافته المزدوجة أن يقيم جسوراً من التواصل بين الأدب العربي والأدب الغربي.

م٢٠٢١